حقيقة الحياة والموت

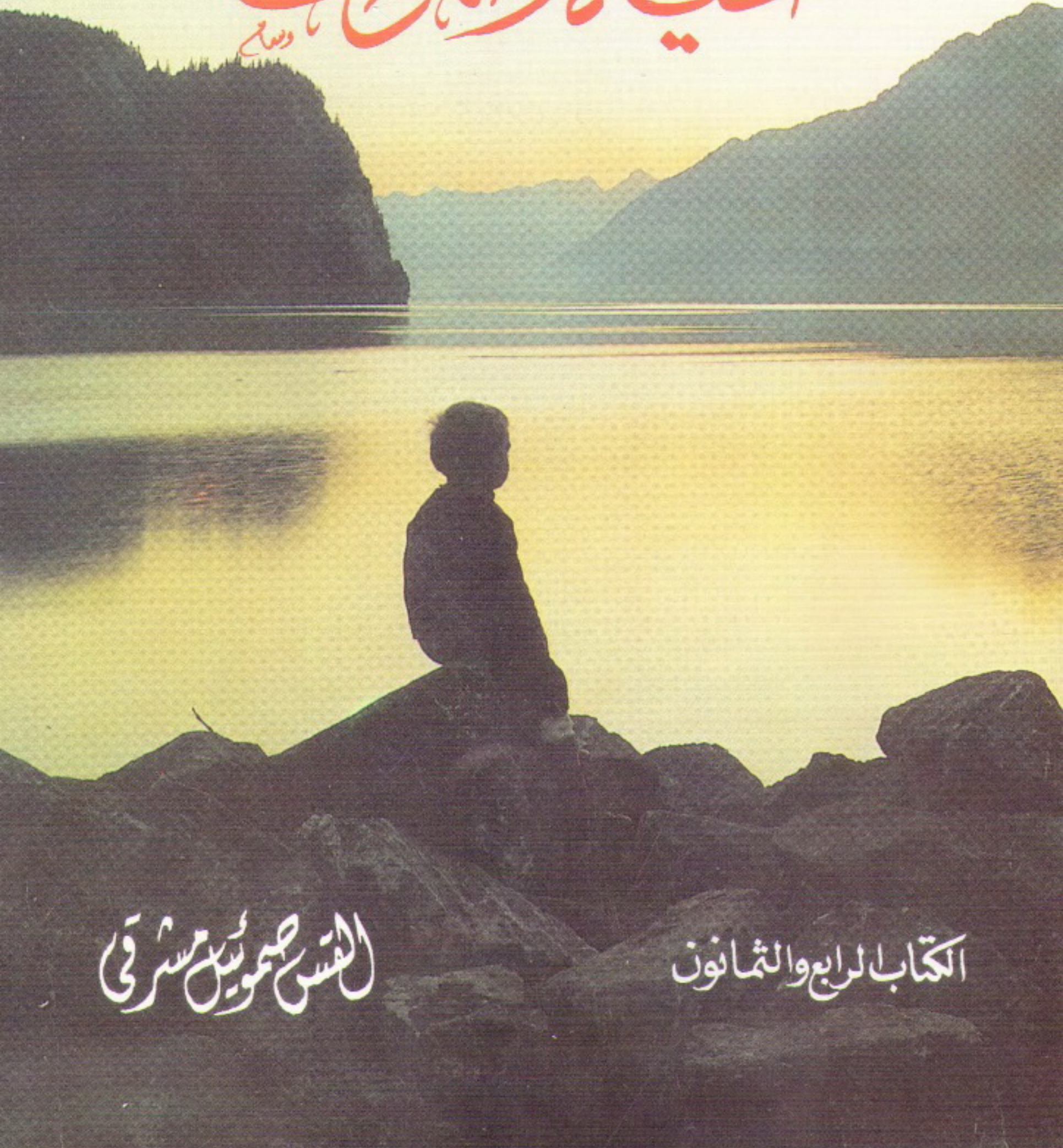

الكتاب الرابع والثمانون

القس صموئيل مشرقي

الكتاب الرابع والثمانون

حقيقة الحياة والموت

أمـــام العلـــم والفلسفة والديـــن

الكتاب الذى يشرح ماهية الحقيقة الوجودية لبنى البشر

بقلم
القس صموئيل مشرقى رزق
رئيس المجمع العام لكنائس الله الخمسينية

صدر عن الكنيسة المركزية لمجمع الله الخمسينى
فى مايو ١٩٩٤
ت ٧٧٥٦٧٦

مقدمة

منذ أن وجد الإنسان نفسه على مسرح الوجود، وهو دائم التطلع إلى ما حوله، دائب البحث عن معنى وجوده، وقد أحس روعة المجهول وجلال اللانهائى فبدأ يسأل ويستخبر: من أين أتيت وإلى أين أمضى!؟ وما سبب وجودى فى هذه الحياة!؟ وهل هناك من حقيقة خفية أسعى اليها وسط الأشباح والظلال التى تحيط بى فى هذا العالم!؟ وهل توجد حياة أخرى!؟

ومن المعلوم أن جميع البشر متساوون فى طريقة الولادة والتركيب ولا يختلفون إلا فى أشياء طفيفة كملامح الوجه واللون والقامة وهى فوارق جزئية لا تؤثر على جوهر وجودهم..

مع أن البشر جميعاً منذ وجودهم يعتبرون أنفسهم أحياء بحكم «غريزة حب الحياة» التى فطروا عليها، ولكنهم يعلمون يقيناً بأنهم سيموتون، ولاشك أن أمور الحياة بأسرها لتصغر وتختفى تماماً ازاء اقتحام البشر دائرة الموت المجهولة وما وراءها ..

وكان لا بد من جواب يحل هذه العقد المحيرة فتنجلى به الحقيقة، بيد أنه لا تتفتح اصدافها عن معانيها إلا لذى قلب نقى ومنطق سليم وفكر حر لا تشوبه نزعة من تحيز ولا لوثة من جمود أو تقليد ...

على أن الحقيقة ليست وقفاً على عقل وحده، وليس هناك أحد من الناس بمبتكر أو مبتدع لها مهما كان ذكاؤه، وإنما الحقيقة هى التى تملك على الناس سائر قلوبهم وعقولهم، وتنبثق فى روعهم انبثاقاً جيلا بعد جيل، وتتراءى اضواؤها لفرد إثر فرد ..

مدخل

لقد كانت أستار الحقيقة خلال العصور ولا تزال تنكشف للعقل والبصائر ستراً بعد ستر بحسب قابلية الناس واستعداداتهم، وشعت أنوارها من وراء الطبيعة باعلان الوحى الذى جاء متدرجاً بحسب مراحل ارتقاء النوع البشرى نحو الكمال!

وبذلك فقد اتفق الوحى مع الطبيعة فى الكشف عن هذه «الحقيقة الوجودية» - وباتفاق هذين الصوتين: صوت الله وصوت الطبيعة حق لكل مستمع لهما أن يسمع لكليهما وهو ضامن عدم الخطأ.. وقد يبدو أحياناً أن صوت الله فى الوحى عال لا يفهم، ولكن من لا يفهمه كما يجب وبالسرعة المطلوبة، فإن بوسعه أن يفهمه من صداه - ففى الله والطبيعة نجد الصوت وصداه... وعندما نسمع لكليهما فأننا نثق تماماً بهما، لأن سمعنا لن يخوننا مرتين. فبمقدور كل منا أن يميز الصوت فى الصدى وهذا يؤكد له الصوت فيسمع ويعرف...

وهكذا تنساب الحقيقة رويداً رويداً بأضوائها ولطفها الجاذب إلى جميع الأفئدة والقلوب التى تتفتح لها، وهى مستقرة فى سائر الناس سواء كانوا علماء أو سذجاً، طالما أنهم يتقبلونها، فإذا هى ظاهرة فى كل من يقبلها فى لمحة مستقرة فى فؤاده تعبر عن نفسها فى كلمة من حكمة ينطق بها لسانه - وذلك لأن الحقيقة نفسها هى مقياس كل شئ: الكون والفكر والإنسان وليس العكس...

ومن ثم يدوى صوت الحقيقة كل يوم داعياً البشر للخروج من الجمود والحصر والتقيد بالحس وأحكام المنفعة الخاصة، ومعلناً بأن حلقات الترقى جميعها متساوية نازعة إلى التكامل وإلى المعرفة الروحية والأيمان: تلك الحقائق التى يقع موطنها فى عالم ما وراء الحس، وتبين الوجود فى مجموعة وحدة كلية شاملة يتصل حديثها بقديمها ويرتكز ظاهرها على خفيها، وليس الحس

بمستغنى أبداً عن العقل ولا العقل بمغن عن البصيرة، وما ظواهر الوجود مهما جسمها الحس بكابحة لطموح الإنسان إلى استقراء كنهها ولا بمقدورها أن تنزع من تفكيره الرغبة فى عرفان ما وراء الأشياء المنظورة من الحقائق!! وهى التى يستحيل على عقولنا إدراكها أو استجلاء أسرارها بدون الإعلان الإلهى وبقدر ما أتانا به هذا الإعلان كجواب للقائل:

ربى خلقنا لماذا حارت بنا الألباب

وهذا بعينه هو ما دفعنا إلى تقديم هذا البحث الفريد لكى نسمو بكل راغب مجد إلى سماء المعرفة اليقينية والإيمان والحب والإيثار. فهناك وحدة الانسانية اساس وحدة عائلة الإيمان حيث الأمن والراحة والسعادة بتوجيه الحس الصحيح والعقل الرجيح واستقامة القلب ووحى البصيرة!! وهكذا يدخل فى رحاب الحقيقة من لا يتعصبون لأفكار خاصة، وكذلك من لا يذهب بلبهم بريق المظاهر، اذ ان تلك الحقيقة بعينها ليس بمقدور كائن ما أن يدعى بأنه يملكها وحده إلا اذا كان بعقله مس، أو هو لا يقدر المعرفة حق قدرها، فهى جلية جلاء الشمس لمن يفهم لغتها ومعانيها، وخفية خفاء الليل على سواهم..!!

الفصل الأول

الحياة والموت أمام العلم

«ألم ليست الطبيعة نفسها تعلمكم» (١كو ١١: ١٤)

· محاولات العلم اكتشاف أصل الوجود :

لا شك أن الوجود سر يقف أمامه العقل متسائلا من أين ولماذا!؟ ومن هنا بذل العلم محاولاته فى الوصول إلى جواب على ذلك التساؤل، ومن ثم قام العلم يبحث عن أصل الوجود :

واكتشف العلم وجود نظام دقيق فى الكون، فابتدأ يستخبر عن ذلك السر المطلق الذى أوجد الكائنات وما هى عليه من حياة ونشاط!! ثم أخذ يتابع ذلك لأجل استجلاء ما يحدث لها عندما تتغير وتختفى!!

ولقد كان للحاسة الدينية الفضل الأول فى الكشف عن «العالم الخفائى» إذ علمت الإنسان أن يؤمن بوجود شئ لا يراه ولا يلمسه، وكان هذا فتحاً علمياً لم ينحصر فى عالم التدين بل وسع آفاق الوجود وفتح البصيرة للبحث عن الوجود فى عالم غير العالم المادى، وبذلك - كما يقول مؤلف كتاب «عقائد المفكرين فى القرن العشرين» فقد ضاق النطاق الذى بقى للحس الظاهر من أسرار الوجود!!

ومن هنا فقد أشار أحد العلماء إلى محدودية العلم وعدم مقدرته على الوصول إلى «سر الحياة» وسبب ذلك اتباعه للطريقة التحليلية فقط، فهو يأخذ من جماع الحياة عمليات ذات نمط واحد، ليكتشف النواميس التى تنظمها معاً.. وقد حاول أن يفسر بها معنى الحياة، وقد لقبها البعض «بالقوة الموجهة»، وعرفها آخرون بانها «المقدرة على التنظيم أو الأختيار»، ونادى غيرهم بانها

حساسية عضوية تنظم العمليات الحيوية الثابتة فى أعماق الكائن الحى... **ولكن مع ذلك لم يستطع العلم اكتشاف سر الحياة وتحديده، هذا ما لم يبلغه العلم فترك للوحى إعلانه، ومنه قد عرفنا** - بأنه خلف هذه المعانى كلها سالفة الذكر - **يوجد هناك العقل المنظم والقصد المستتر المنوطان بالنفخة الالهية، التى نفخها الله فى حفنة التراب. "فصار آدم نفساً حية". (تكوين ٢: ٧)... وفى هذه النفخة التى يرد ذكرها فى مواضع أخرى من الكتاب كالقول: "جابل روح الإنسان فى داخله" (زكريا ١٢: ١) ندرك كيف أن الله هو مصدر الحياة، وكما يقول بولس لفلاسفة أثينا: "لاننا به نحيا، ونتحرك، ونوجد" (أعمال ١٧: ٢٨).**

وجاء فى «معاجم» اللغة العربية أن معني «الحياة» هو «النمو والبقاء»، ومعنى «الموت» هو «مفارقة الحياة»، أما قواميس اللغة الأنجليزية فقد ورد بها أن «الحياة» هى «الوجود المتحرك» و «اتحاد النفس بالجسد» و «الفترة بين الولادة والموت» - وأنها قد تأتى بمعنى الروح والنشاط والسيرة أما «الموت» فهو فناء الحياة أو الشعور، وأيضاً الفساد والضياع.

وواضح ان اللغة تقف قاصرة فى هذا المجال الذى نحن بصدده وامثاله، وهى هنا مضطرة إلى التراجع، لانه ماذا تكون اللغة، بل وما هو الإنسان نفسه بالنسبة للكون!؟ عدم ازاء اللامتناهى، ومن ثم فأنه عاجز عجزاً - لا متناهياً - عن الاحاطة بالاطراف. ونهاية الاشياء كبدايتها خافيتان عليه كل الخفاء فى سر مكنون لا يستطيع النفاذ اليه وخاصة فى وجوده الحالى!! والواقع ان معنى «الحياة» نفسها لا يزال مجهولا، والكلمة «حياة» لا تزال تجول فى عالم العلم دون امكانه تحديدها وتعريفها، وكذلك الحال بالنسبة لمعنى «الموت» كما سنرى فيما بعد...!!

- **أصل الحياة لدى أصحاب المذهب المادى:**

زعم أصحاب المذهب المادى أن المادة هى أصل الوجود، واعتقدوا بأزليتها،

ولكن جابهتهم هذه الحقائق وهى استحالة أن تنشأ الحياة من المادة غير الحية، واستحالة أزلية الكون حيث كونه يتغير ويتبدل، وهذا ينافى أزلية المادة. لذلك قرر العلم بأن المواد الخامدة التى يتكون منها الوجود ليس فيها القوة الخالقة لتخلق نفسها وتظهر فى عالم الوجود، وهى لم توجد من البدء لأنها عناصر غير ثابتة مما يستلزم أن يكون لهذا الوجود المادى بداية وأن عناصره قد خلقت فى وقت ما، والقول بغير ذلك ينافى قوانين الطبيعة - وهكذا أثبت العلم ان المادة لم توجد ذاتها اذ ليس لها وجود حقيقى ثابت فى ضوء التحليل العلمى - وبناء عليه يستحيل أن تكون الحياة قد وجدت من تلقاء ذاتها حسب رأى الماديين!!

ذلك لأن التجارب العلمية قد أثبتت أن الحياة ليست ذاتية فى الخلائق - لانها عرض يوهب ويسلب - **مما يستحيل معه أن تكون النشأة، إذ ليس لها وجود حقيقى ثابت كما سبق القول، وهكذا اثبت العلم عدم أزلية المادة، كما أثبت أن الموجود ليس هو كل ما يقع تحت الحس، وإنما يختفى وراء الأجسام عناصرها الأولى:** فإذا هى إشعاع (أى تموجات من الأشعة) والإشعاع هزات فى الأثير وشحنات كهربية ومغناطيسية متحركة تملأ الفضاء - وإذا بالحرارة حركة وبالوزن جاذبية - وإذا بالمادة كلها كهربيات وذرات!! وقد أستطاع الكيميائيون أن يحللوها ولكن هيهات لهم أن يركبوها ويبينوا لنا كيف يتحول الشعاع إلى ذرة وتتحول الذرة إلى خلية حية، مما يدل بالتأكيد على أن المادة لم توجد نفسها!!

وواضح من ذلك أن العالم المادى يتكون من ذرات هى مجرد طاقة (أى مجال نشاط) لقوة غير منظورة كونتها، وهى تسير بقوانين يسعى العلم جاهداً لاكتشافها لتفسير وفهم الظواهر الكونية بها، ولكنها مع ذلك لا تدلنا على كنه الحوادث ولا على الاسباب الخفية الكامنة وراءها الأمر الذى يجعل هذه القوانين تحتاج دائماً فى أفاعيلها إلى منظم مدرك يوجهها، وضابط يحكم تصرفاتها - الأمر الذى يدل على وجود كائن أعلى حى يقننها ويوجهها ويسيطر عليها

وهو «الذات الالهى» ليس حياً فقط بل هو «ينبوع الحياة»!!

- **تحليل لمذهب داروين "النشوء والارتقاء":**

ولقد اتخذ المذهب المادى شكلا جديداً حين خلع عليه داروين حلة علمية شائقة أطلق عليها اسم «النشوء والارتقاء». ويبدو أن داروين نفسه كان مؤمناً بالله إلى وقت ظهور كتابه «أصل الأنواع» الذى يقول فى ختامة: **"ان الصور الحية الأولى مخلوقة"**، وبذلك هو يفسر حقيقة علة أصل الوجود، وهو لم يقل قط إن التطور يفسر خلق الحياة أو أنه ينفى وجود الله بل نجده يقول: **"بأنى لم اكن ملحداً بالمعنى الذى يفهم فيه الإلحاد على أنه إنكار لوجود الخالق"** ولذلك فإنه يقول فى كتابه سالف الذكر: **"بأن الأنواع تفرعت من جرثومة الحياة التى أنشأها الخالق"**، وهو يستطرد إلى القول: **"بأن استحالة تصور هذا الكون العظيم العجيب وفيه نفوسنا الشاعرة قائماً على مجرد المصادفة - هى فى نظرى من أقوى البراهين على وجود الله"**.

يؤيد ذلك قول زميله والاس فى كتابه: «عالم الحياة» متحدثاً عن عقيدة داروين: «أنه على ما يظهر قد وصل إلى نتيجة واحدة وهى أن الكون لا يمكن أن يكون قد جاء بغير علة عاقلة» وسبقه لامارك فى تقرير نفس الحقيقة إذ قال: **"بأن الحياة فى الأصل من خلق الله فهو تعالى الذى أوجد الأصول الطبيعية والنماذج الأصلية للاحياء"**.

ولكن يبدو أن فكر داروين قد تغير شيئاً فشيئاً بعد ذلك حتى أعلن أسفه لاستعماله لفظ «الخلق» مجاراة للرأى العام، وصرح بأن الحياة لغز من الألغاز، وأن ما فى العالم من أسرار فى الألم والموت يدفعه إلى اللاأدرية - أى مذهب الشك والتردد الذى يمنع أصحابه عن القطع برأى - ومن ثم فانه لا يقول بالعناية ولا الصدفة، وكانت الكلمة الأخيرة عنده هى أن المسألة برمتها خارجة عن نطاق العقل» ولكنه مع ذلك وصل إلى الزعم بأن الإنسان ليس مخلوقاً من الله

بل من الانتخاب الطبيعى، ولم يشأ أن يستثنيه من قانون التطور العام. ثم قال: «إنه فى أزمنة غير معلومة ظهرت المادة والطاقة وفى داخلهما الخلية الحية التى تحتوى على شرارة الحياة». وانه من بذرة واحدة نشأت الحياة بأسرها، وبعد أن تفرعت جرثومة الحياة ألى مليونين أو ثلاثة ملايين من الأنواع أصبح تكوين الحياة يسير بعدئذ حسب ناموس الوراثة والبيئة».

ولكن من أوجد المادة؟ ومن أوجد الخلية الحية؟ ومن أطلق الشرارة الأولى للحياة؟ ولماذا بقيت الخلية الأصلية التى هى مصدر الحياة كما هى بدليل ثباتها فى الأنواع دون أن تتطور، هذا ما لم يستطع أصحاب هذا المذهب أن يجيبوا عليه، فإن ثبات الأنواع ومنشأ الحياة هما من المعضلات العظمى التى حيرت داروين واتباعه مع سهولة تعليلها عند المعتقدين بوجود الخالق!

ولسنا بحاجة إلى مزيد من البحث لإثبات فساد هذه النظرية الأمر الذى قام به كثيرون من افاضل المؤلفين كما فى كتابى «تصدع مذهب داروين» و «بطلان نظرية التطور» فقد اثبتنا بما لا يدع مجالا لأى شك كيف أنها تخالف نواميس الطبيعة، وتفتقر إلى الدليل العلمى، فضلا عن كونها لا تفسر لنا ولا تساعدنا على معرفة أصل الإنسان، ولا كيفية حصوله على المميزات السامية التى يمتاز بها عن كافة المخلوقات الأخرى - وخاصة فى الادراك والنفس - لهذا كله قرر العلماء اليوم بأن نظرية التطور ليست فى حكم اليقين بل هى تستند إلى فروض الاحتمالات فقط!

- **التحول من مذهب داروين إلى ما يسمونه مذهب "التطور الخالق" لبرجسون** : وهو الذى يفسر الوجود تفسيراً منطقياً بما يسمونه «القوة الحيوية» التى يعتبرونها أصل الوجود يفسرها «برجسون» ابرز زعماء هذا المذهب بقوله: «ان هذا الوجود ليس كله مادة مسيطرة على الفكر والحياة، بل هو قوة غير مادية تتطور من تلقاء نفسها فهى انبعاث من باطن وخلق مستمر!! ولكنه لم يستطع أن يبين لنا حقيقة هذه القوة الحيوية التى هى

جوهر الحياة، لأن كنه الحياة أى سرها أو ماهيتها لم يقف عليه أحد، وليس بمقدور أحد أن يتوصل اليه، كما اثبتت التجارب العلمية ان الحياة انما تنشأ عن طريق حياة أسبق، مما جعل نظرية «التوليد الذاتى» للقوة الحيوية أمراً مستحيلا علمياً اذ لا حياة بدون حياة سابقة لها، ومعنى ذلك أن توليد الحياة لا يتأتى الإ بلمسة من حياة أخرى، وفضلا عن ذلك فان الحياة لا وزن لها ولا حجم ولا طول ولا عرض ولا كثافة حتى يمكن معرفة كنهها، ولا سبيل إلى ذلك مهما بذل الانسان من جهد وبحث وعناء!!

ومن ثم فقد اضطر أصحاب هذا المذهب إلى مساندته بالإنتقال ألى العقل زاعمين أنه أصل الوجود، وأنه هو بنفسه تلك القوة الحيوية بعينها باعتباره أهم مظاهر الحياة فى الكون، فهو وراء الوجود المادى والمسيطر عليه - ولكن لقد وقفت أمامهم حقيقة عدم كفاية العقل مراراً حتى بعد ان تفتحت أمامه أبواب العلم الحديث ووصل إلى عصر الذرة والفضاء، وهو يحاول بكل ما لديه من جهد التصدى للموت وإيقافه ولو قليلا ... لكنه لم ينجح فى ذلك وهيهات!!

فإنه حتى الأن لا يدرك كنه العمليات العقلية نفسها ولا كيف تتعطل حين تضطرب الأجهزة المحركة لها فى الدماغ، فالعالم قد يتفرس إلى الأبد فى مخ الانسان عند تشريحه له ويفكر تفكيراً ملياً فى الذرات والجزئيات التى يتألف منها ولكنه لن يقدر أبداً أن يشرح لنا كيف يستخدم المخ هذه التركيبات فى عملية التفكير، وهذا يثبت أن العقل لا يفهم الحالة التى بها يعقل، **فالعقل إذاً لا يدرك ما هية ذاته - ولذلك يستحيل أن يكون جوهراً قائماً بذاته، ومن ثم لا يمكن ان يصح اعتباره أصلا للكائنات أو منبعاً للحياة!**

وفضلا عن ذلك فأن اصحاب مذهب «التطور الخالق» قد اعترفوا بأن للحياة منافساً يتحداها، فيعترض سبيلها ويعوق اقتدارها ويتبادل معها الانتصار والهزيمة وهو «المادة». ومعلوم أن الخلائق الحية بأسرها بما فيها الإنسان

خلقت من مادة صماء عديمة الحياة فى أصلها وعناصر تحليلها، **فمن أين جاءت هذه الحياة الينا إلا من خالق حى له سلطة الخلق والاحياء!؟ فهو الذى أودع الحياة داخل هذا الغلاف المادى - فهو خالق المادة وجابل الحياة المستترة وراء حجابها...** ومن ثم فإنه لا يمكن أن يكون ابداع الحياة فى روح الإنسان من روح مماثلة سابقة، لأن تلك أيضاً معلولة لعلة كهذه، ولا يمكن أن يكون الجسد أو أية قوى أخرى فطرية (وهى غير عاقلة بالطبع) هى علة الروح، لأنه من البديهى ألا تكون العلة أدنى مرتبة من المعلول، **ولذلك وجب أن يكون وجود أرواحنا والتى يكمن فيها سر الحياة - دليلا على وجود الله الروح السرمدى خالق الأرواح، وهو الذى نبعت منه الحياة بكل مظاهرها فى الكون!**

* *

ويؤيد علم الجينات (وحدات الوراثة) نظرية الخلق الإلهى هذه إذ إنه يرينا أن كل خلية من خليات التذكير أو التأنيث تحتوى على عدد من الكروموزومات (المواد الحية) التى تعتبر العامل الحاسم فى نقل الصفات الوراثية وما يكون عليه الكائن الحى:

وتبدأ الحياة لكل منا فى لحظة غير مدركة من نطفه دقيقة غاية فى الصغر، عندما تهتدى من بين الملايين منها إلى بويضة تقرر وجود الكائن البشرى الجديد، الذى يبرز من بين ثنايا المجهول!!

هذه الجينات (أى الناسلات) تعمل بموجب قانون الوراثة الذى وضعه الخالق العظيم فى الكائنات الحية - وهى بموجب ناموس الإنتاج بحسب الأجناس الذى أعلنه موسى فى فاتحة سفر التكوين بأن "كل شئ يخرج كجنسه" تحفظ التصميم وسجل الخلف والخواص التى لكل كائن حى مقررة بذلك حفظ الانواع - وقد فشلت كل محاولة فى مناقضة هذا القانون فأضحى بذلك من أعظم الحقائق العلمية التى تؤكد وجود الخالق المبدع...

• **جهل العلم لحقيقة أسرار الوجود الكونى والأنسانى أيضاً :**

فليقل العلم اذن أنه يجهل سر هذا القانون الخاص «بالتناسل والوراثة»، لأن الأمر أكبر من أن يعرفه ويحيط به، ولكن لم يزل العلم يجهل أشياء كثيرة فهو لا يعرف عن «الحياة الروحية» شيئاً، وقد يقال إنها خارج اختصاصه، ولكنه حتى فيما له اختصاص به فى «الحياة الطبيعية» **لم يستطع ان يدلنا على ماهية الحياة وحقيقة الموت ولا ماذا كان قبل الحياة وما سيكون بعد الموت!! بل ان الحياة الطبيعية نفسها فى الجسم البشرى لم تزل سراً لا سبيل لإدراكه والإحاطة به** - كيف اتحدت عظامه وتصلبت، وكيف توزعت أعصابه فى انسجام وتناسق، بل كيف انضمت آلاف خلاياه بعضها إلى بعض فى نظام وترتيب وهى تبلغ الملايين فى الجسم الواحد ويبلغ عددها ما يفوق عدد الجنس البشرى كله على وجه الأرض!؟ أما القلب فيشبه مضخة ماصة كابسة يأخذ من الجسم ليعطيه، أما صماماته فهى اشبه بأبواب تفتح عند دفع الدم، ثم تنثنى إلى الخارج من تلقاء نفسها حتى لا تعود اليه كمية الدم التى يدفعها، ناهيك عن شراييته التى يدخل فيها الدم فى دورة عجيبة من القلب واليه!!

وماذا عن الحواس التى لكل حاسة منها أعصابها التى تنقل بها التأثيرات الخارجية إلى الدماغ دون اختلاط فيما بينها، وكيف يميزها الدماغ ويفهمها فى مركز الأعصاب العام - **وأما الخيال والمشاعر والضمير والإرادة، فالمتأمل فيها يراها من أعجب العجائب حقاً...**

أما كيف تنال كل خليقة غذاءها اللازم لها وحدها، فتحصل على المواد التى تحتاج اليها من المعمل الكيميائى «المعدة» وتحولها إلى عظام ولحم ودهن ودم وأوتار وجلد وشعر بل إلى أميال من العروق والشرايين ومئات من المواد والسوائل كل بخاصياته ومنافعه - ويتم كل ذلك بحسب اختصاص كل خلية فى اتقان بالغ، فهذا ما لانزال نجهله كل الجهل، وكذلك الحال بالنسبة لسائر التغيرات والتحويلات التى لا تزال آخذة مجراها فى تركيبنا العجيب، ومع ذلك

فإن هذا الكيان المدهش الذى للإنسان هو مجرد خيمة تسكنها الروح وهى التى تجعل من كل هذه المواد إنساناً حياً ...

* *

هذه هى معجزة التكوين البشرى بالنسبة للوجود الإنسانى ناهيك عما يحتويه الوجود من أسرار، وهذه وتلك انما تحقق انبعاث الحياة من كائن حى هو ذاته أصل الحياة ومصدرها وهى تنبعث منه على كيفية عجيبة فائقة الإدراك لا يعلم العلم سرها، ولذلك وقف العلم صامتاً ازاء منشأ الحياة مما استوجب التسليم من جانبه بأن بدء نقطة تكوين الحياة هو حتماً فى اليد الإلهية مباشرة!!

ومن ثم فانه ليس فى مكنة الإنسان مهما أحرز من الحكمة والمهارة أن ينشئ حياة فى نبات أو حيوان، لأن مصدر الحياة هو الله، وبه وحده يحيا كل كائن حى فى العالم الطبيعى كما فى العالم الروحى على حد سواء!!

وبذلك فقد ثبت فشل نظرية "التوليد الذاتى" أى أن الحياة تتولد تلقائياً وفجائياً، وانه لا مفر من التسليم ببديلتها أى نظرية "توليد حياة من حياة أسبق" واعتبار ذلك ناموساً طبيعياً قد انهارت أمامه نظريات النشوء والأرتقاء والتطور الخالق وقد فشل العلم فى محاولة إبطال هذا الناموس كما فى اكتشاف كنهه - وهنا قد توقف العلم تماماً وبلغ أقصى مداه بالنسبة لمحاولاته فى الكشف عن أصل الحياة وأسرار هذا الوجود الكونى والإنسانى على حد سواء!!

* **عجز العلم تجاه الصفه السريه التى لكل من الحياة والموت، وعدم تمكنه من ادراك كنة الموت بعد أن فشل فى الكشف عن سر الحياة:**

لقد أقر العلم بواقع الأمر ان واقع الحياة لا يزال مجهولا باعتباره اسمى

أسرار هذا الوجود الذى وجدنا أنفسنا فى إطاره، ولذلك فأن لفظة «الحياة» نفسها لا تزال بلا تعريف علمى يحددها ويعطى تعريفاً مقنعاً عنها حتى الأن!! أما عند نقطة تقابل المادة بالحياة أى فى الحدود القائمة بين الموت والحياة يقف العلم صامتاً أيضاً، وهكذا هو يبقى كذلك تجاه سرية كل من الحياة والموت، الأمر الذى نراه يلتزم بسببه الأكتفاء بأوصاف خارجية لهما تاركاً حقيقتهما جانباً بأعتبارها لغزاً لا يحل!!

وعن ذلك يقول هكسلى بأن: «العلم الحديث بكافة محاولاته لا يقدم لنا حلقة اتصال كافية بين الأحياء والأموات، بل مع تقدمه فأن الهوة التى بينهما تزداد اتساعاً».

وكما وقف العلم عند حدوده التى أوضحناها بالنسبة للحياة نجده يقف موقفاً مشابهاً بالنسبة للموت، والعلم مع تسليمه بواقع الموت كناموس عام، إلا أنه يقر بحسب منطق العقل بأنه سير فى طريق المجهول المطلق... وهو محاط برهبة ومخاوف أقرتها إعلانات الوحى فدعت الموت بسببها «ملك الأهوال» (أى ١٨: ١٤)، ومع أن نفاذ الموت سارى المفعول بلا توقف، **الإ أن الموت نفسه لا يزال مجهولا قد توقف كل تفكير وبحث عن تحديد معناه**، ومن هنا ظهر هذا التردد الذى يجعل الباحثين يقتربون من الموت لبحث أسراره ثم يتراجعون احتراماً لهيبته، **ويفعلون ذلك بسبب سلطانه المطلق على البشر منذ بدء تاريخهم على مسرح هذا الوجود وإلى نهاية هذا التاريخ!!**

- **أقصى ما وصل إليه العلم فى تفسير الموت:**

فما هو الموت إذاً؟ أيمكن تعريفه فى صيغة معقولة؟ لقد حاول ذلك هربرت سبنسر اثناء بحثه لمعنى كلمة «الحياة» فقد وجد أنه مرتبط بكلمة «الموت» فبدأ بتعريف الحياة بقوله: «الحياة هى تفاعل التغييرات المتنوعة الفجائية والمتتابعة فى داخل الكيان الحى مع الوجود الخارجى المحيط

به» أى التوافق المستمر بين العلاقات الداخلية والخارجية فى الكائن البشرى. فبحسب لغة العلم يقال عن الأنسان الحى أنه ذاك الذى يستطيع ان يحتفظ بالأتصال بالبيئة حوله أى كل ما يحيط به من أرض وهواء وشمس وسائر عناصر الطبيعة التى لها تأثير مباشر على الحياة الطبيعية على أساس العلاقة الحية النشطة بين الإنسان وبيئته، وهى التى بسببها يبقى جسم الإنسان حياً متوائماً مع روحه التى تستمر فيه، طالما هو محتفظ بصلاحيته لاستبقائها فى داخله...

فاذا حدث عائق يمنع العضو الحى من التكيف مع بيئته ويجعله يرفض مجاراة العلاقات الخارجية أو يعجز عنها فانه لابد له حينئذ من الموت :

فالموت اذاً بحسب تعريف العلم هو "قطع العضو الحى صلته بالبيئة التى يعيش فيها" - وقد يكون هذا القطع جزئياً وتدريجياً، مما يجعل صاحبه أقل حياة مما كان سابقاً، وكلما ازداد هذا القطع وفقد بسببه العضو الحى نسبة أكبر من الاتصال بالبيئة فإنه يصبح أكثر موتاً - فهو فى الظروف الاعتيادية وفى حالة الصحة يكون فى أتم علاقة مع البيئة المحيطة به، ولكن عندما يصاب أى جزء منه بتلف بسبب مرض أو حادثة، مما قد يلقى به خارج تلك العلاقة أو تحديدها مما ينتج عنه أن يكون هذا الموت جزئياً أو كلياً... فإن نسبة هذا الموت تتحدد بمدى حرمان العضو الحى من تلبية المطلب الضرورى اللازم لحياته من قبل بيئته،

فمثلا هناك حالات الصمم والعمى وغيرها مما يحدد ارتباط العضو الحى بالعلاقات الخارجية مع بيئته، فإنه لا يكون بعد حياً لها، لأن جزءاً من كيانه فقد الشعور بناحية معينة يعتبر بالنسبة لها قد مات. ولو فرضنا بأن الاصابة كانت فى العقل مثلا، فإن صاحبها يفقد واسطة اتصاله بما حوله، فلا يعود يدرى ما هو حادث فى العالم الخارجى، وحينئذ يصبح هذا العالم ميتاً بالنسبة له - وهكذا موت الأجزاء من كيان حى. يجعل صاحبه أقل حياة وأقل، أما موت

جميع الأجزاء فيقضى على العلاقة ويبطل عملها بأسره: ويتم ذلك عندما يؤثر الموت على شئ مركزى فى الكائن الحى فيتوقف عمله، لأنه عندما تنقطع كل العلاقات القائمة بين الكائن الحى وبيئته، حينئذ تنحط الأعصاب فلا تجاوب، وتنغلق الرئتان فى وجه الهواء، ويرفض القلب أن يرسل دماً جديداً، فيصير الجسم جثة هامدة ميتة بلا شعور بالنسبة للحياة الطبيعية..

فالموت إذاً هو توقف الكيان البشرى عن العمل مما ينتج عنه إبطال علاقته مع البيئة المخصصة له والتى كان يتعامل معها، ومن هنا فإن المعنى العلمى للموت قد صار الأن واضحاً تماماً.. فالموت هو تحطيم فى العضو الحى يلقيه بعيداً عن البيئة اللازمة له ويقطع علاقته بها، وهو لذلك نتيجة حتمية لهذا القطع .. وهذه هى فكرة الموت الأساسية: "الفشل فى التوافق بين العلاقات الداخلية والخارجية للكائن الحى، والعجز فى إصلاح الحالة الداخلية التى تسببت فى قطع العلاقة، لأن استبقاء الحياة مرهون بصلاحية هذه العلاقة واستمراريتها!!

وهذا يقودنا لقول سبنسر: «بأن الموت بسبب الاضمحلال الطبيعى يحدث لانقطاع التوافق بين القوى ووظائفها وبين البيئة وعناصرها من طعام وماء وهواء.. لأنه عن طريق هذه العناصر تمدنا البيئة بما يدعم الحياة الطبيعية ويحفظها فينا، لذلك فإننا بدونها لا نحيا ولا نتحرك ولا نوجد - **صحيح أن فى العضو مبدأ الحياة ولكن فى البيئة شروط الحياة، وبدون إتمام هذه الشروط تضمر الحياة وتختفى. فالعضو الحى لن يحيا بدون البيئة الخاصة به**، - إنه جسدياً ليس بموجود بعد لأنه انفصل عن البيئة التى تمده بمقومات وجوده الطبيعى كالهواء والماء والنور والحرارة والطعام الكافى، وكل هذه عناصر لازمة لبقاء الحياة الطبيعية. فى الكائن الحى!!

ومن ذلك نفهم بمنتهى البساطة كيف إننا مدينون للبيئة فيما تمدنا به، وأننا

لذلك بدونها نفقد هذه الحياة الطبيعية - وكما يقول العلم إن سبعين فى المائة تقريباً من الجسم البشرى مكون من الماء والباقى غازات ومعادن ومع أنها زهيدة القيمة إلا أنها لازمة لاستبقاء حياتنا الطبيعية، وهذه كلها تأتينا من البيئة...

فإذا حدث الموت بسبب المرض فإن ذلك إما لضعف التوازن فس علاقة الكيان مع البيئة أو لعدم استجابة الداخل لصدى حدث ما يحيط به فى الخارج.. أما الموت بسبب حادث ما فإنه يستلزم أن ذلك الحادث قد أوجد تغييرات ميكانيكية قد لا تلاحظ أسبابها ولكن تؤكد نتائجها إنتهاء توافق العضو الحى مع بيئته!!

وكل مااستطاع العلم الحديث أن يصل اليه فى الوقت الحاضر هو التمييز بين الموت الاكلينيكى الذى فيه تتوقف دقات القلب ويقف معها التنفس، مع ما فى حالة اعادتها واسترجاع الانسان من غيبوبة الموت من كوارث تنتج عن فقد السيطرة على الحواس (كالنظر والسمع وغيرهما) وذلك بسبب توقف المخ الذى هو (شبه برئيس مجلس الادارة وذلك بسبب الموت النهائى الذى يشمله فيل ادارته بالنسبة لتلك الحواس وسائر قوى الجسم ... وبالاضافة جاءت الصيحة الاخيرة للعلم بامريكا فى محاولة تحنيط الجسم البشرى على غرار ما حاوله الفراعنة فى زمانهم وذلك لاستبقاء صلاحيته على أمل أن يعيد العلم الحياة إليه ثانية وهيهات!!

الفصل الثانى

الحياة والموت أمام الفلسفة

«مع قلبى أناجى وروحى تبحث» (مز ٧٧: ٦)

• **معنى الفلسفة ومجالات أبحاثها :**

«الفلسفة» كلمة معناها «محبة الحكمة» ومجالها البحث عن طبيعة الأشياء أو حقائق الموجودات، يعرفها جاك مارتيان بأنها محاولة يراد بها فهم الوجود ومعرفة أنفسنا وهى مجرد محاولة للفهم المستنير لا يدعى صاحبها حين يتفهم «الكون» ويتعرف إلى أسراره، وحين يرتاد مجاهل النفس البشرية المعقدة ويلتمس مكان الإنسان من الوجود، حين يتفهم هذه المجالات لا يزعم أنه قد توصل بشأنها إلى العلم اليقينى، أو أنه قد قال فى تفسير هذه الميادين الكلمة الأخيرة، ولكنه حين ينشد هذه الألوان من المعرفة المستنيرة إنما يقصد من وراء ذلك إشباع لذته العقلية والاستجابة إلى حب الاستطلاع الفطرى فى البشر، فتكون دراساته العقلية غاية فى ذاتها ويسد بها حاجته الطبيعية إلى الفهم والمعرفة، ولكن هل عند الفلسفة بالاطلاق – بما فى ذلك الفلسفات المعاصرة – الجواب الذى ترجوه البشرية على مشاكل هذا الوجود المحيرة وتطلبه بإلحاح!؟ وماذا لديها لتقوله فى هذا الشأن:

يبدأ الفليسوف بسكال وصف هذه المشكلة بقوله: "أية خدعة هو الإنسان؟ أية بدعة؟ أى هول؟ أى اختلاط؟ إنه موضع المتناقضات، خارقة الخوارق! حكم على جميع الأشياء، ودودة هزيلة من ديدان الأرض! موطن الحق وموبأة الشك والخطأ! مجد العالم وحثالته! – وهل هناك من يفك تلك العقد؟ ثم يعود إلى حصر المشكلة بقوله: "هذه إذاً حالة الإنسان – تقلب، ملل، قلق، انشغال بما هو فى الخارج، والتماس للراحة، وهى أيضاً طبيعة حركة دائبة، ثم سكون تام هو الموت...!!"

إذن ما الإنسان فى الطبيعة؟ إنه عدم ازاء الوجود المطلق، كل إزاء العدم، وسط بين لا شئ وكل شئ.. لكن الوجود فيما حولنا فيه أشياء أخرى - غير الإنسان - وهناك تمييز بين هذه الإشياء وبين الإنسان، ولكن سواء فى البحث عن «سر الوجود» فى نفس الإنسان أو فيما حوله لا يمكن فصله عن «موكب الحياة». هذا هو معنى الفلسفة المعاصرة وما بلغته فى زماننا الحاضر، الأمر الذى جعل من الإنسان إشكالا مستمراً بالنسبة لنفسه، إذ لم يعد لشئ ما أى معنى إلا فى «مجرى الحياة» ...

ولكن للحياة نهاية محتومة لا استثناء فيها لأحد، والناس عموماً ينتظرونها ويفكرون فيما وراءها، وهم دائمو التساؤل عن: ماهى الحياة؟ وما هو الموت؟ وماذا يحدث وقت الموت؟ وهل الموت مجرد خطوة فى الظلام أم أن هناك نوراً قد سطع فى أرجائه وأضاء غيبيات الخلود!؟ وأياً يكون الجواب فأننا هنا - كما يقول هكسلى - أمام هوة الهوات وهى الهوة القائمة بين الموت والحياة!!

* **اهتمام الفلسفة ببحث مشكلة أصل الوجود ومصدر الحياة:**

نظرت الفلسفة إلى الكائنات نظرة شمولية فأعتبرتها كليات لا تتجزأ، وتفقد خواصها الجوهرية إذا جزئت وعلى هذا الأساس امتد نموذج آلة «ديكارت» من الكائنات غير البشرية إلى الكائنات البشرية وأصبح من الواضح أن الكثير من الوظائف البشرية بل أغلبها فى تماثل مع وظائف الحيوانات الأخرى - وبالتالى يمكن تبسيطها هى أيضاً وإخضاعها إلى علم الميكانيكا - **على أن البشر لديهم وعى - وعى بالذات وعقل هو جوهر الحياة الإنسانية - وهذا العقل يمثل الروح عند ديكارت، وبما أن الروح قد مستها أنفاس الله، فلا يمكن أن تكون مجرد آلة...** وهكذا ينبغى أن يكون هناك نوعان من الخامات فى الطبيعة (١) المادة التى تخضع لقوانين الفيزياء والكيمياء والميكانيكا (٢) **الروح أو العقل وهى خامة ليست مادية بل هى وعى الفرد بوجوده أى بالجزء الخالد منه...**

فكيف يتفاعل العقل والمادة إذاً؟ عن طريق منطقة معينة فى المخ هى كما يرى ديكارت الغدة الصنوبرية حيث يستقر العقل والروح عندما تتجسد، ومنها يستطيع العقل أن يحرك الأزرار ويدير المفاتيح وينشط المضخات فى آلات الجسد...

لكن الفلسفة اعترفت من جهة أخرى بأن هناك أكثر من ظاهرة يقف العقل أمامها حائراً ولا يستطيع المنهج العلمى التجريبى أن يقول فيها كلمته بالنفى أو التأييد. كما يقول أحد الباحثين: أن النافذة الحية التى نطل منها على الكون ضيقة للغاية!!

- **رأى الماركسية فى مشكلة الوجود والعدم:**

ظهرت الماركسية فى أوائل هذا القرن - وهى التى يدين بها سياسياً أكثر من نصف سكان العالم، ولكنها كمذهب لا يفهمها الكثيرون... وقد أطلق عليها اتباعها اسم «الشيوعية» **لأن أصلها يرجع إلى "جمهورية أفلاطون" التى افترضت إذابة فوارق الطبقات، وشيوعية الملكية.**

أسس كارل ماركس - هذا المذهب كفلسفة - وكان فى الأصل من عائلة يهودية أعتنق المسيحية للمصلحة، كانت على عينيه غشاوة الحقد على المسيح، وكان فيورباخ هو المصدر الذى أستقى منه ماركس ولكنه تغالى عليه وتزيد. قال فيورباخ: «أن الإنسان يفقد فى الدين ذاته» - وجد ماركس فى هذه العبارة مادة للهجوم على الكنيسة.. **وكان فهم هذين الشخصين للدين فهماً خاطئاً إذ حسباه مخدراً للشعوب، أفيوناً لها،** وكان هذا الموقف متأثراً بموقف رجال الدين من جهة النظام الطبقى بإيجاد طبقتين هما **"البورجوازية" أى "الطبقة الحاكمة" و"السرف" أى "عبيد الأرض"..!!**

تنكرت الماركسية للروح وعلى هذا الأساس حاولت أن تثبت أن المادة هى مبدأ الحياة وأصل الوجود وأنها فى إصطراعها تتحول يوماً ما إلى الروح -

وهكذا جعلت "الماركسية" من "المادة" "إلهاً"، وأراد ماركس بذلك أن يصطنع من فكرة داروين أساساً يفرش عليه فكرته من جهة إصطراع المادة قبلا وأصلا..!!

ونادى قبل ماركس أرسطو فى جدله المنطقى ومن بعده داروين عن تطور الخليقة: وقد وجد ماركس فس الدارونية مجالا مشابهاً لما إرتآه، فبدأ جدله بالفيروس - وهو أدق صور الحياة ويمكن معرفة أثره من التفاعلات، إنه أدنى مراتب الحياة ولكنه لايزال مرتبطاً بالجماد.. هذا تأييد للتفكير الدارونى وقد وصل فى الماركسية إلى إعتبار أن الروح تتخلق من المادة، وهذا هو سبب محاولتهم التوصل إلى إنماء جنين فى أنبوبة، ولكن مهما يكن من مدى نجاح هذه المحاولة فإن عناصرها الطبيعية الموجودة فى الكائن يمكن أن لا تخلق، فهذا الذى يفعلونه ليس عملية خلق بل تخليقاً - وحتى بالنسبة للفيروس فإنه مجرد إستحضار لا خلقاً وهذا الإستحضار هو عملية عزله لرؤيته ودراسة المعالم فى بدايتها - عزله لمتابعة تطوره التاريخى ...

أما هذا البريق الخلاب الذى تضفيه الماركسية على مبادئها وتخدع به الكثيرين على أساس تفهم الإنسان للأوضاع التى هى موجودة فى العالم بحسب قول لينين، وهذه هى فلسفة الماركسية وفكرتها فهو مجالا لا يستحق أن نناقشه هنا، فلسنا بصدد الأمانى والأحلام التى تعطى للناس المحرومين الأمل كما يقولون (مع أن الشيوعية المثلى لم تطبق حتى اليوم) فإن ذوبان الفرد فى الجماعة - بحسب رأى الشيوعية - لا ينفى الشخصية ولا يعنى قتل الطموح، لإن إطفاء الشعور على الفرد أمر مهم، وتقدير نجاحه بخاصة كسبيل للتقدم أمر لابد من التسليم به... وبجانب ذلك فإنه منذ وجود حياة على الأرض، والإهتمام باد للإتجاه لإنعدام الطبقية بين الجميع حتى إن المساواة التامة بين الناس وفقاً للميثاق العالمى لحقوق الإنسان أصبحت من المواد الأساسية فى سائر دساتير دول العالم ويسعى المجتمع الدولى لتحقيقها ...

وهكذا بدأت الماركسية خطيها الظاهرين وهما الجدل المادى وإزالة الفوارق: **أما من جهة الأمر الأول وهو ما تسميه بالصراع الجدلى فإنها تزعم به خلق الروح من المادة وليس العكس** (ومهما قيل فى شأن التفاعلات وما يزعم حدوثه فى أنبوبة إختبار مما يصفونه بعملية خلق) يستطردون منه إلى القول بأن ظهور الحياة من الزبد المتفاعل فى المحيطات خلق أول خلية... ويعتبر الماركسيون - فى نظرية الخلق - دارونيين، وهم يعتبرون قصة دارون عن الخلق إنجيلا..!!

أما الأمر الثانى الخاص بإزالة الفوارق فإنه بسببه يرون الدين يحد من حرية الإنسان ويجعله متغرباً عن نفسه لا يمثل ذاته فى الواقع ويصبو إلى أمور غيبيه لا يجد من ورائها أية منفعة... كما يقولون عنه أيضاً بإنه مخدر ليظل البشر فى عبوديتهم وأغلالهم لا يحاولون التطلع إلى عيشة أفضل - وهم لذلك ينتقدون قول المسيح: "طوبى للمساكين.. للجياع" هذا فى نظرهم أحد العيوب وهو لا يعطى الناس القدرة على بحث الأمور فى أنفسهم بحسب وضعها الواقعى...

ولكنهم برفضهم لله وتأليه المادة وزعمهم بأن كل روح هى من خلق المادة - مع أن هذه عملية عكسية تماماً، إنما يقلبون الحقائق إذ كيف يخرج الأعلى من الأدنى (بإنتاج المادة للروح بحسب تصورهم) - وكيف يمكن للإنسان المحدود الوصول إلى المطلق، بل هل يمكن أن يكون هو مطلقاً!؟ أم هل يستطيع بذاته وإمكانياته المحدودة الوصول إلى المطلق أو حتى فهم المطلق - والمطلق هو ما لا يمكن ادراكه أو تصويره أو الاحاطة به، كالحق والخير والجمال - أى الصورة الأصلية لكل وحدة من هذه والموصوفة بالمطلق الشمولى الغير محدود!!

* * *

يتضح مما سلف ذكره بأن أفكار ماركس عن الشيوعية بعيدة كل البعد عن

التحقيق، إلا إذا حدث تطور بيولوجى يتغير به الإنسان ويصب فى قالب جديد يتقوقع فيه فكرياً لتحقيق حلم الشيوعية بالجنة الأرضية (الوهمية) ولذلك عمدت الشيوعية إلى الإرهاب، وصبت جام غضبها على المتدينين، فقامت بتعذيبهم ومصادرة ممتلكاتهم، وإرسالهم إلى معسكرات الاعتقال... إلخ.

ومن المعلوم أن الإرهاب باسم الإنسان أقسى إرهاب فى سبيل فكرة مجردة بعيدة عن التحقيق ويزداد الأمر سوءاً عندما يصبح الإرهاب باسم «الدين»، وأيا كان نوع الإرهاب وسببه فالحقيقة الواقعة تؤكد أنه ارتبط بالشيوعية ولاتزال هى الأكثر إلتصاقاً به إلى اليوم...

* **ظهور الفلسفة الوجودية لمواجهة الفلسفة الماركسية:**

ظهرت الوجودية وهى فلسفة تعنى إدراك الإنسان للون معين من الحياة يتفق مع واقع الأشياء وطبيعتها، إنها أوصلت الإنسان لكى يحقق وجوده فى الحياة - على حد قولهم - بالتحرر من كل قيد، ورفض كل قانون وضعى، وتحدى الضوابط التى تحدد المسئولية - وهى القيد الوحيد الذى يرتضيه الإنسان بنفسه لنفسه -

وهكذا ظهرت هذه الفلسفة كومضات وسط لمحات المعاناة كرد فعل للحرب الثانية العظمى.. لقد كان اتجاه الوجودية هى أن تقود الإنسان للبحث عن سر وجوده لماذا وجد؟ ولماذا هو يعانى فى الحياة، وهذه جعلت فكره يذهب بعيداً إلى أغوار ويكتشف أن وجوده هو أهم أسراره...

وهكذا اهتمت الوجودية بوجود الفرد وما له من صفات جوهرية مما يمس كيانه ككائن له قيمته... فأصبح للوجود عداء مستمر للنظر المجرد فى كل ما يحيط بالإنسان، لكنها تهتم بالإنسان نفسه حتى اتخذت من أجل هذا صورة التحليل الذاتى العميق مما يعتمل فى نفس الإنسان، وهى تبحث عن مصير الإنسان فى محاولة يائسة، فتنصرف عن التفكير المجرد والتصورات

الجوفاء التى لا تمس حياة الإنسان فى صميمه والتى لا تبحث فى إهمية وجود الفرد وعن إمكانياته واستخدامها ثم عن غاية حياته، إن جانباً منها قد تعرض - بقدر ما استطاعت - إلى ما بعد مماته!!

وهكذا نزعت الوجودية إلى التفكير فى معنى الوجود الشخصى ثم فى مشكلة الإنسان بأسرها: ورغم مخاطرات التقدم فى علوم الذرة والفضاء وغيرهما فإن هذه الفلسفة قررت وجوب تقبل الحياة والموافقة على استمرار البقاء فيها... فالإنسان يجد نفسه دائماً أمام ظروف ومواقف هى التى تحدد طبيعة وجوده ونوع العلاقات القائمة بينه وبين العالم...

من كل هذا نستطيع أن نقرر أن الوجودية هى فلسفة الإنسان وحريته فى فعل ما يشاء: فهى تبدأ دائماً من نقطة ذاته، ولكنها فى الوقت نفسه قد جعلت من هذا الإنسان حقيقة ناقصة مفتوحة، لاحتياجها إلى ربط الوجود الإنسانى بوجود الآخرين من جهة أخرى.

أما حقيقة «الموت» فقد بقيت كما هى بلا حل بالنسبة لكل من الفلسفتين المادية والوجودية على حد سواء..

- **ما تقوله الفلسفة بوجه عام عن مشكلة الموت:**

وأما بالنسبة للموت فكل ما استطاعت الفلسفة أن تدركه عنه وصفها له بأنه "مشكلة شخصية" وهى دائبة البحث عن معناه فى ضوء التساؤل الوارد بالوحى فى القول: «إن مات رجل أفيحيا؟ الإنسان يسلم الروح فأين هو؟» مما لا يدع مجالا للشك أن الموت كان موضوع تفكير وتساؤل المفكرين فى كل جيل فى سبيل الوصول إلى جواب مقنع فى استجلاء حقيقته، لأنه لابد من أننا جميعاً - كل بمفرده - سنصبح يوماً ما جزءاً من الماضى الرهيب بالنسبة لهذه الحياة.

لقد اشترك الفلاسفة والشعراء والأنبياء وجميع البشر - رجالا ونساء - في هذا التساؤل، **ولذلك يسأل براوننج: "ماذا يعنى الموت؟ أهو فناء أم عبور إلى عالم آخر!؟" كما يناجى كنجلى الموت قائلا: "أيها الموت المحبوب متى تأتى؟ تعال لكى تخبرنى بكل ما أنا أرغب فى معرفته"** في حين يقول الماديون بصراحة: «إن الموت هو نهاية كل شئ، وأننا كالشمعة نزوى، وأما اللاادريون فيعلنون بأنهم لا يدرون ماذا يكون الموت ولا ما وراءه!!

ويتقدم سير روبرت أندرسن فى كتابه: "المصير البشرى" ليعلن أن الموت من وجه آخر هو مشكلة عامة تشمل البشرية كلها - التى بلغ تعدادها سبعة مليارات من البشر - وعن ذلك يقول أحد الشعراء:

يا للخليقة من مهاجمة الردى الكل صرعى دون أى شفيع

فماذا يكون مصير هذه الأكثريات الهائلة من بنى البشر؟

حقاً ما ارهب مصيرها!! فإن المسألة لا يمكن اعتبارها مجرد عملية حسابية - لأن لكل فرد من ملايين البشر وجوده الذاتى الخاص وعالمه الصغير المكون من أفراحه وأحزانه، ولاشك أن تفكير العقل هنا يصاب بالشلل إذا ما حاول التعرض لهذه المشكلة والتحقق من مضمونها الحتمى!! ومع ذلك فإن الآف الملايين هذه التى تحيا على الأرض الآن إنما هى موجة واحدة من موجات الحياة البشرية التى تتعاقب جيلا بعد جيل وتتدافع نحو شاطئ المجهول، فأى مستقبل إذاً ينتظر هذه الكتل البشرية الهائلة عند وصولها إلى منحدرات الموت الذى يجرفها إلى ذلك الشاطئ!؟

- **تحليل موقف الماركسية تجاه مشكلة الموت:**

يقول كوستى بندلى فى كتابه «إله الالحاد المعاصر» فى الفصل الثانى بند٣ تحت عنوان: «الماركسية عاجزة عن حل مشكلة الإنسان بمعزل عن الله»: «إن ما تدعيه الماركسية من أنها تحقق للإنسان ذاته فى ظل نظامها الإجتماعى، وأن

ذلك هو تطورها تجاه إنسان المستقبل، الأمر الذى جعلت رفض الله ثمناً له، إنما هو إدعاء باطل لأن عكس ما يؤكد الماركسيون وما ينتظرونه هو الصحيح، فإن الانتحارات فى ظل النظام الاجتماعى الأكمل والأعدل قد ازدادت، مما يبين اشتداد حدة مأساة الحياة الإنسانية.. ولذلك مهما حاولت الماركسية تعديل العناصر الخارجية الاجتماعية، فإنها لن تستطيع أن تمس العناصر الداخلية الروحية.. وتشتد المأساة حينئذ لأن الصراع الاجتماعى الذى يحول الإنسان عن تفكيره فى مصيره وفى معنى وجوده يكون قد خمد، فلابد عند ذاك للإنسان أن يجابه مأساة الموت، مأساة محدودية كل شئ فى هذا الوجود!!

وهنا نجد أن الماركسية قد عجزت تماماً عن حل مشكلة الموت، فالموت عند الماركسيين هو عدو الإنسان الأكبر لأنه فى نظرهم يعنى الفناء، إذ هو يضع حداً لحياة الإنسان بل وأيضاً يحكم على الحياة كلها باللامعنى: لأن كل لحظة من لحظات الإنسان، حتى أكثفها وأغناها إنما هى ظل ومنام ما دام محكوماً عليها بأن تصب فى العدم. وفضلا عن ذلك فإن هناك خبرة معاناة موت الكائن المحبوب طالما أننا نعيش فى عالم تقوم فيه العلاقات بين شخص وشخص، وقد شهد ماركس نفسه بهذه الحقيقة بإعلانه لها فى إحدى رسائله بأنه عاش خبرة فقده ثلاثة من أولاده وإحساسه بمرارة ذلك..!!

«مشكلة الموت» إذاً هى فى صميم جزع الإنسان الحديث مهما حاول أبعاد شبح الموت عن نفسه، وهى تزداد حدة **أولا: لكون الإنسان الحديث أثبت انتصاره على الطبيعة ولذا يبدو له الموت ناقضاً لا يحتمل لهذا الانتصار، فقد وجد الإنسان نفسه بعد هذا النصر بأنه لايزال يواجه موته. وثانياً: لأن الإنسان الحديث، بقدر رفضه لله أصبح وحيداً لا رجاء له أمام الموت، وقد ظهر ارتباك الماركسية أمام هذه المشكلة وأن لا قدرة لها على حلها وهكذا لم تقدم الماركسية لذويها سوى الجزع من الحياة ومن الموت على السواء.**

* *

وهكذا تهرب الماركسية من إعطاء المضامين عن الموت لأنها تخشى تعذر التفسير وهى تتجاهل المشكلة بمحاولة فاشلة فى الإدعاء بأن لا معنى لحياة الإنسان إلا فى كونه يعمل من أجل الإنسانية، فلا مانع من أن يفنى مادام النوع الإنسانى الذى يتمثل فيه الفرد باقياً للعيان، ولكن جهاد الإنسان من أجل هذا النوع من «خلاص العالم» لا يمكن أن يصرفه بأى حال من الأحوال عن نفسه، إذ لا خلاص للعالم فى الواقع بدون خلاص الفرد، ولا خلاص للفرد دون التغلب على الموت - **وواضح أن الإنسانية تجد ذاتها فكرة مجردة لا وجود لها خارج البشر الأفراد، فإذا كان البشر الذين يؤلفونها يموتوا كلهم، إذاً ففى كل إنسان يموت تموت الإنسانية!!**

وتنكشف النظرية سالفة الذكر فيما كتبه ماركس وتعرض فيه لمشكلة الموت وذلك فى مرة واحدة من إنتاجه الضخم بقوله: « يبدو الموت انتصاراً قاسياً للنوع على الفرد»، وهو بذلك يناقض الوحدة بينهما، لأن فرداً معيناً - أيا يكون - ليس سوى جزء معين من النوع وبهذه الصفة هو مائت!!

ولاشك ان الخفة الغريبة التى يعالج بها ماركس هذا الموضوع الأساسى تخفى ارتباكاً أمام هذه المشكلة - فلقد بشر ماركس بمصالحة الإنسان والطبيعة، ولكن الموت ينفى كل مصالحة من هذا النوع.. لأنه يعنى عند الماركسيين سحق الطبيعة للإنسان، ويعنى أن الانحلال العضوى قد قضى على فكر الإنسان وقدرته - إنه يعنى فى النهاية أن الماركسية ليست تمجيداً للإنسان بل للطبيعة التى توجد الإنسان - على حد قولها - ثم تبيده، وهى تفنى بذلك زهرتها الفضلى ويا للهول!! هذا يعنى أن الماركسية ليست فى النهاية فلسفة إنسانية كما أرادها ماركس بل فلسفة طبيعية.. وقد وجدت فى النهاية الموت سحقاً للطبيعة والإنسان على السواء، لأن هذا الإله العضوى المزعوم - أى الطبيعة - الذى صنعته الماركسية لنفسها قد قضى على فكر الإنسان وذات وجوده...

فهذه الفلسفة إذاً التى أرادت إبراز الإنسان أضاعت الإنسان وأغرقته فى

الطبيعة، وذلك لأن الإنسان لا يتعالى عن الطبيعة إلا بارتباطه برب الطبيعة ذاك الذى رفضته الماركسية. بحجة تحرير الإنسان. (الصفحات ٤٨-٥٤) من كتاب إله الإلحاد المعاصر)

• **موقف الفلسفة الوجودية من مشكلة الموت:**

يصف «هيدجر» الفيلسوف الوجودى «مشكلة الموت» بأنه مصير تندفع فيه الذات مستقبلا وحتماً نحو فنائها وهو يعتبر البشر موجودات متناهية قد وجدت من أجل الموت الذى يدخل فى صميم كينونتها باعتباره أعلى ما لديها من إمكانيات. فهذا الحد الأليم - حد الموت أو التناهى - إنما هو الذى يحدد الوجود الإنسانى ويميزه ويجعله فى صميمه، **وجوداً نحو الموت أو وجوداً للموت، وإننا وإن كنا نعتبره حدثاً عاماً يقع للآخرين، ولكن ذلك لا ينفى توقعه الفردى حتى وإن كان طابعه غير محدد بسبب جهلنا بموعده،** فإننا نميل إلى اعتباره نهاية مجهولة لا موضع لها فى الوقت الحاضر!! ولئن كان الإنسان العادى يعرف جيداً أن كل إنسان لا محالة ذائق للموت، إلا أنه يقابل هذه المعرفة بشئ من عدم الاكتراث، **لأنه لا يجد فى نفسه من الشجاعة القدر الذى يستطيع به أن يفكر فى "موته الخاص" وهو ينبر على أن الموت مشكلة شخصية فليس فى استطاعة أحد أن يموت بدلا من الآخر أو عنه.** وهو يعتبره لذلك واقعة شخصية تنتج عزله وجودية تنقطع معها كافة الروابط... وبسببه يقرر هيدجر بأن هذا الوجود زائف لأنه مهدد بالانتهاء فى أية لحظة بفعل الموت الذى يعتبره ليس مجرد انتظار مستمر للحظة النهاية خاتمة هذه الحياة، بل هو مواجهة مستمرة لذلك العدم الذى يخلع على وجودنا الحالى طابعه الحاسم!!

ثم نراه يقرر فيما بعد بأن الموت والتفكير فيه هو الذى يعزل الذات عن الآخرين ويردها إلى باطن وجودها: **ومعنى هذا أن فكرة الموت تصرف الذات عن التفكير فى هموم الحياة ومشاغل الآخرين، فإن من شأنها أن تلقن هذه الذات درساً فى بطلان الحياة وفناء الوجود، ومن هنا**

فإن الذات التى تدرك حقيقة الموت، لابد من أن تشعر بتفاهة الاستمساك بأهداب الحياة والتعلق بلذات وجودها العرضى المتناهى!!

وهيدجر لا يدعو بذلك للتهرب من أعمالنا ومهامنا اليومية، ولكنه لايريد فى نفس الوقت لمشاغلنا العادية هذه أن تستأثر بتفكيرنا فننصرف عن تذكر الموت، والعمل على مواجهته، ولذلك نراه يقول: "**إن الذات الواعية لا تقبل أن تكون فريسة لخداع المشاغل اليومية بل إنها تراها فى مواجهة الموت عديمة القيمة**" (الفلسفة المعاصرة ص ٤٣٦ - ٤٤٠).

ويستعرض روجر مؤلف كتاب «الموقف الوجودى» نظرة الوجودية إلى الموت فيقرر بأنها تعتبره أمراً وجودياً قائماً يهم كل إنسان ويعنيه بالذات - **لأن الإنسان ينتهى إلى أجل لا يتجاوزه، وهذه الحياة الحاضرة تسير حتماً إلى الموت... فماذا يعنى هذا الوجود الذى يتهدده الموت فيقضى على الأهداف والغايات التى نحلم بها!؟ وما سر هذا السكون وهذا الصمت الأبدى المخيف!؟**

ومن المقرر والمعلوم أن الوجودية تنطلق من السؤال الآتى: «من أنا؟ وما معنى وجودى كفرد مستقل قائم بذاتى؟ وواضح أن هذا سؤال ينطوى على صعوبة كبيرة لم تستطع هذه الفلسفة أن تجيب عليه - وكل ما تقدمه فى هذا الشأن هو: "**إننا جئنا من العدم، وكل ثانية من الزمن تمر بنا إنما هى فترة زمنية تقربنا من العدم**".

ويقتبس هذا المؤلف هنا عن هيدجر قوله: "**بأن الوجود هو السر الغامض الذى هو مصدر حياتنا، وهو فى نفس الوقت العدم الذى يبتلع حياتنا هذه**". وهو يصف هذا العدم بقوله: «إن حقيقة الذات الجوهرية الأساسية هى أننا نتجه يوماً فيوماً نحو العدم. كلنا سنموت وما يتبقى من أجسادنا بعد الموت هو حفنة من التراب لا تشكل ذاتاً.. إن القدر المحتوم المقيد للذات هو العدم!!

إن الحياة محدودة فى الزمان والمكان، والإنسان جاء إلى هذا العالم بدون إرادته، وهو لا يشعر بأن هذا العالم عالمه أو بيته، فهو غريب عنه، لأن لا جذور له تشده إلى الأرض - مع أنه ليس له عالم أو بيت سوى هذا العالم الذى له أن يحقق فيه وجوده الحقيقى بالشجاعة والإقدام.. ولكننا فى شجاعتنا وسعينا نتبين أن العدم يكتنفنا من كل صوب، وأننا إذا علمنا هذه الحقيقة نكون قد بلغنا معرفة الذات الحقيقية - وذلك يعتبره هيدجر خلاصا دون أن يشير إلى استمرار الحياة أو الخلود بعد الموت!!

* *

أما جبرييل مارسيل فإنه عندما يعرض "لمشكلة الموت" نجده يقرر بأنه لا يصبح إشكالا أليماً إلا عند موت "الأنت" أو "الحبيب" - ومعنى هذا أن الموت لا يقلقنا كواقعه عامة، وإنما هو كذلك حينما يكون السبب غياب الشخص الذى نحبه غياباً مطلقاً، إذ عندئذ يصبح موته هكذا تحدياً لنا وتحطيماً للوحدة القائمة بيننا، **ولكنه يعود فيقرر بأن الحب نفسه أقوى من الموت، ومن شأن الوفاء أن يجئ فيتحدى كل غياب لأنه يشعرنا بأن (المحبوب) لا يمكن أن يموت** وهو لذلك يقرر بأن ثمة صلة روحية بين الأحياء والموتى بدليل أن هؤلاء - الغائبين - لا يزالون شخصيات فى نظرنا تظل مرتبطة بوجودنا الشخصى، وتظل هناك علاقة ما تجمع بيننا وبينهم، **ولذلك فإن الميت (المحبوب) قد يبدو لنا فى بعض الأحيان وكأنه "حاضر" أمامنا، وكأن حواراً يدور بيننا وبينه... وذهب مارسيل فى فلسفته إلى إمكانية قيام ضرب من "التراسل الروحى" بين الأحياء والأموات** كل هذا فعله فى محاولة استجلاء سر الموت فى ضوء فلسفته المسيحية (الفلسفة المعاصرة ص ٤٩٩ - ٥٠٠).

* *

وشتان بين موقف «مارسيل» هذا الذى وصل إليه، وبين الفلسفة الوجودية الملحدة التى عجزت عن تقديم جواب لهذا السؤال الجذرى الذى يطرحه الإنسان

على نفسه وهو سؤال الأسئلة، السؤال عن معنى حياته وموته، وقد رأينا أنها لم تجد جواباً عن ذلك فأهملت حياة الإنسان الداخلية وجعلتها بلا قيمة!! وهكذا توقفت الفلسفة الوجودية عند هذا الحد فلم تستطع لذلك ان تعطى الانسان تفسيراً صحيحاً لوجوده ولا اضاءت له جنبات الموت حتى يعبر الى الشاطىء الآخر المجهول بسلام!!

الفصل الثالث

الحيـاة والمـوت أمـام الديـن

«قد جعلت قدامك الحياة والموت
فأختر الحياة لكى تحيا» (تث ٣٠:١٩)

* **تعقيب على ما إستعرضناه فى الفصلين السابقين:**

الناس عموماً -بدون إستثناء- يفكرون فى المستقبل الأبدى، وذلك بحكم غريزة «حب البقاء» التى هى فيهم بالفطرة التى جبلوا عليها، ولذلك فإنهم دائمو التساؤل: ما هى الحياة؟ وما هو الموت؟ وماذا يحدث وقت الموت؟ وهل هو مجرد خطوة فى الظلام أم أن هناك نوراً قد سطع فى أرجائه وأضاء لنا غيبيات الخلود!؟

لقد إستعرضنا فى الفصلين السابقين أبحاث العلم وأقوال الفلسفة عن هذه المشكلة التى نحن بصددها "**مشكلة كنه الحياة وسر الموت**":

واكتشفنا عجز العلم عن فهم هذه المشكلة وعدم تمكنه من كشف سرها، وسبب ذلك بداهة هو إتباعه للطريقة التحليلية، فهو يأخذ من جماع الحياة عمليات ذات نمط واحد ليكتشف النواميس التى تنظمها معاً، وهو فى محاولة تحليلها يتبخر وجودها ويضيع.. وقد بلغ العلم أقصى حدوده عندما أقر بأن الكروموزومات (الجينات التناسلية) لم تفسر سر الحياة، رغم قوله بأن الخلية الحية تختار من الوسط ما يلائمها، وهذه المقدرة على الإختيار تؤكد وجود القصد المستتر، وهكذا كل الظواهر البيولوجية تنادى بوجود عقل منظم يسمو على الإختبارات العلمية ولا نستطيع أن نصل إلى كنهه بوسائلنا المخبرية!!

وهكذا فشلت المادية فى تفسير أصل الوجود بالمادة وحدها، فإن مزاعم الماديين تتداعى حين تقول إن الإدعاء بأن العقل صفة من صفات المادة، أو معلوم لها، كما أن الإدعاء بأن العقل هو الجسم واضح البطلان...

والواقع أن المادية عاجزة كل العجز عن تفسير أبسط العمليات العقلية، فليس فى وسعها أن تفسر تفسيراً معقولا كيف يصدر الإحساس عن الحركة، والتفكير عن المخ وغير هذا من ظواهر. وأكبر الظن أنه مهما تكن حججهم فإنها لا تكفى لإبطال الرأى الذى يقول: **"ان الظواهر النفسية تختلف عن الظواهر البدنية كل الإختلاف..."**

أما عن دراسة الانسان دراسة معملية برده إلى كميات من الدهن والكربون والفسفور والجير ونحوه، فإن شخصية الإنسان تتجاوز مجال الوصف العلمى بمختلف أجزائه -وهى عديدة تتناول أجزاء الانسان ونواحيه، لكنها لا تكشف لنا عن حقيقة الانسان ككل، ومرجع فشل المادية ليست إلى أنها لم تستوف دراسة جزء من أجزائه- بل وإلى أنها دراسات تتناول مختلف أجزائه - **والانسان أكبر من حاصل مجموع اجزائه، فإن الانسان هو الكل الذى يضم جميع الأجزاء ويعلو عليها وعلى مجموعها كمجموع أجزاء- وهذا الذى يضم الأجزاء ويبدو شيئاً مستقلا عنها وأسمى منها هو "الإنسان" الذى يعجز العلم التجريبى عن تفسيره!!**

* *

ولذلك فقد قام "المذهب الروحى" فى وجه المادية مقرراً بأنه يحسب طبيعة الأشياء الكامنة وراء الظواهر المحسوسة أنها روحية فى أصلها، فليس الجسم علة للروح، ولا التفكير معلولا للمخ، لأن المخ مادة والمادة لا تفكر ولا تشعر، وإنما الروح أو العقل هما مصدر الظواهر المادية والبدنية، فإننا إذا كنا لا نستطيع أن ندرك طبيعة الأشياء بالحواس، إنما نعرفها

بالتفكير المجرد وحده نجم عن هذا أن الطبيعة البشرية روحية لا محالة...

وقد نشا المذهب الروحى بعد المذهب المادى، لأن العقل يتجه بطبيعته إلى المحسوس أولا - لكنه سرعان ما يتجاوزه إلى البحث فيما وراءه لكشف المجهول من أسراره!!

ولا ريب أن هناك قوى كثيرة تشير إليها ظواهر غريبة لاتزال خفية تسمو عن حواسنا المادية وعن مقدرة العلم ولكنها بالرغم من هذا حقيقة فعلية تموج من حولنا فى هذا الكون الغامض الفسيح... فهناك على سبيل المثال ظاهرتان تؤكدان ذلك وهما ظاهرة الكشف أو الاستشفاف، وهى الشعور عن بعد، والثانية التخاطر أو ما يطلق عليه العلماء "الاتصال التلباثى":

والاستشفاف هو الإدراك عن بعد كأنما يرى الإنسان بعينيه ويسمع بأذنيه ما لا سبيل إلى إدراكه بالحواس الطبيعية. أما توارد الخواطر فهو إنتقال الفكر من ذهن إلى ذهن دون الاستعانة بالوسائل المعروفة ومن بينها «التنبوءات الروحية» عن أحداث تمت وتتم بالفعل ...

ألا يمكن أن نعزو هذا إلى تجاذب الأرواح وتلاقيها!!

* *

وقد إتجهت الفلسفة إلى الناحية المادية البحتة فى الماركسية من ناحية وإلى الوجودية من ناحية أخرى، وهما على طرفى نقيض إذ أن الأولى تمثل النزعة المادية والتضحية بالفرد فى سبيل المجموع، وتميل الأخرى إلى إقرار الحرية وتمكين الفرد على حساب المجموع:

تقول الماركسية: «إن الإنسان كائن ذو معنى يسير نحو المطلق»، ولكنه بحسب الوجودية عاجز أن يحقق هذا المعنى بنفسه، وأما بلغتنا المسيحية فإن الإنسان - وهو مخلوق على صورة الله - ليس هو الله، لكنه لا يحقق ذاته إلا بالله -

لقد قهرنا الفضاء وبدت مملكتنا لا حدود لها، ولكن بقى الضياع فى الزمن، إنه أمر لا يطاق بمقدار بقاء الإنسان وحده فى مجابهة مشاكل الحياة والموت رغم مساندة العلم له، والمعونة التى تحاول أبحاث الفلسفة أن تقدمها له..!!

وهنا تتوقف الفلسفة، وتقف مع العلم عاجزة مكتوفة اليدين إزاء هذه المعضلات التى لا حل لها..!!

• وهنا نأتى إلى الدين حيث نجد الجواب الوحيد لمشكلة الحياة والموت، الحل الوحيد للبشرية التى تقف فى مفترق الطرق لتختار لنفسها منها ما يروق لها:

أما طريق الدين فمعناه: «أن لحظات وجود الإنسان هنا على الأرض إنما هى حلقات متتابعة تقدم له فرصاً متتالية للإختيار بين الحياة والموت - وعلى هذا الإختيار يتوقف المصير الأبدى الذى سيكون عليه شكل الأبدية بالنسبة لنوعيته - ويصف الشاعر ذلك بقوله:

هذى الحياة إذا سمت فلأنها لحياتنا الأخرى طريق رجوع

ويقول أخر:

والعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سار

ويقول ثالث:

وما الموت إلا رحلة غير أنها من المنزل الفانى إلى المنزل الباقى

ويقيناً أن الدين يؤكد لنا أن الحياة هى فى الاتصال بالله وأما الموت فهو فى الانفصال عنه، فإن الحياة - طبيعية وروحية - لا تأتى بمجهود ذاتى، لأنها

تنبع من مستوى أعلى من الإنسان، من ذات الله نفسه عن طريق المسيح: الذى هو المجرى الحقيقى للحياة التى لن يسودها الموت بأنواعه - أى الموت الروحى والفعلى والنهائى - بالإنفصال الكلى عن الله ومحضره - وذلك بالنسبة لمن ارتبطو بذاك الذى سحق الموت وقال عن نفسه: «أنا هو القيامة والحياة»

وتحت مسئولية الإختيار الذى نحن بصدده يجب أن نجابه مشكلة الإختيار بين الحياة الزمنية والأخرى الأبدية - وكيف أننا إذا أردنا أن نربح هذه الحياة الأبدية، فإن علينا أن نطأ بأقدامنا أمور هذه الحياة الزمنية - ومن المعلوم أن الحياة الزمنية عند البعض هى كل شئ حتى جعلوا منها «إلهاً» يتعبدون له، مع أنها لا يجب أن تكون الهدف الرئيسى لأحد على الاطلاق، لأن حياة الأبد التى وراءها أهم منها بما لا يقاس، وهى الهدف الأسمى كقول الشاعر:

لا تفترر فالعمر ظل زائل — والمرء مهما عاش فهو الراحل
والعاقل الممدوح من يتأمل — فى أمره ويظل دوماً يسأل
عما يكون الأمر بعد وفاته — وبأى باب بعد ذاك سيدخل

وأما الذين يستعدون للحياة الباقية فمن حقهم أن يسمعوا:

ولا يهولنك أمر الموت تكرهه — فإنما موتنا عود إلى الوطن.

* *

وهذا يدفعنا لكى نتذكر أن للموت مكانة فى خطة الله، تماماً كالحياة - الأمر الذى أشار إليه سفر الجامعة ٣: ٢ بالقول: "للولادة وقت وللموت وقت" فإن الله هو العامل الأعظم للحياة والموت على حد سواء:

وإننا إن كنا نسلم بالموت فذلك أنه ليس بنهاية كل شئ ولكن وراءه القيامة، إذ لا جدوى من حياة بدون خلود، نهايتها الفناء الأبدى.. ومن المعلوم أن الحياة والموت كليهما قد ارتبط بهما المسيح الذى أبطل الموت وأنار لنا الحياة والخلود!!

ولذلك يقول بسكال: «إننا لا نستطيع أن ندرك شيئاً عن الحياة أو الموت بعيداً عن المسيح. فبدونه لا نستطيع أن نعرف ماهية الحياة أو الموت»، ويبدو إهمية ذلك لأن الإنسان فى رأى الكتاب هو تاج الخليقة كلها، فهو لا يتمتع بوجود كيان مادى أو كيان فكرى فحسب، إنه أسمى من ذلك بكثير، **إنه كائن روحى يمتاز بروح ونفس وجسد**، ولأنه خلق على صورة الله ومثاله فهو لذلك كائن له ذاتيته الفريدة المتميزة (أى شخصيته الخاصة) وعن وجوده الحالى يأتى وصف الشاعر:

والجسم للروح رحم تستكن به ... حتى البلوغ فتستعلى وينغمر
وغاية الجسم طى الروح قد خفيت ... فلا المظاهر تبديها ولا الصور
والموت فى الأرض لابن الأرض خاتمة ... وللأثيرى فهو البدء والظفر

ولذلك يحفز الشاعر الإنسان على الإرتقاء بقوله:

اقبل على النفس فاستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

فإن من يفعل ذلك لن يخشى الموت كقول الشاعر أيضاً:

إن هول الموت وهم ... ينثنى طى الصدور

* *

ومن هنا فإن نظرية أفلاطون التى تقول بأن المادة حادث عرضى باعتبار أن أجسادنا جزء من الطبيعة فحسب، لا وجود لها فى الكتاب المقدس الذى يتحدث عن خلق الله للأرواح كما عن خلقه للأجسام، كذلك هو يعلن حقيقة التجسد الفعلى، ويرى فى الخلق والتجسد جزءاً جوهرياً من المخطط الإلهى الحكيم الشامل!! **ويعتبر الإنسان فى هذا الضوء كائناً مزدوجاً ملتقى العالمين: "عالم الروح" و "عالم الجسد"**. وهو وإن كان يرتبط إرتباطاً وثيقاً من الجانب الجسدى بالكائن الحيوانى فى طبيعته وغرائزه ووظائفه، إلا أنه من الجانب الآخر يحوى شيئاً أكثر من العجماوات، لأن الله نفخ فيه بروحه «نسمة» - وهى التى تميزه عن سائر المخلوقات - إنها «روحه» التى تتجه دائماً إلى واهبها ومصدرها، **فالإنسان** - كما يقول جونز - **هو الكائن الوحيد الواعى الذى له الشعور بوجود الله، ذلك الشعور**

الذى يكسبه "حب البقاء" ويطبع فيه "الأبدية"!!

ولذلك فإنه من المؤكد أن أسمى ما فى الإنسان قوة التمييز والإدراك وتقدير القيم، وأعظم ذخيرة بين القيم هى «القيم الروحية» فهى التى تسمو بالإنسان وترفعه من رتبة المخلوقات الدنيا ليصبح شريكاً فى الطبيعة الإلهية!!

وهذا بحد ذاته يرفع الإنسان إلى عالم آخر مجيد يتحقق فيه الاشباع الأبدى باللانهائى، ولذلك فإننا - نحن المسيحيين - نواجه بأمل واثق يقينى يعطى للذهن تطلعاً إلى ما هو أفضل كما سيتم بخلع الشكل الحالى والتحول إلى شكل آخر مبارك فى مرحلة تالية سيبلع فيها الموت ويصير إلى غلبة... ومن ثم فإن المسيحية تعتبر الزمن الحاضر بالنسبة للمؤمنين كمجرد جسر أو كوبرى للعبور من هذه الأرض إلى الحياة الأبدية... ولذلك فإن فترة الحياة الحالية إنما تعطيهم فرصة الوجود الإستعدادى للحياة الأخرى!!

* *

وقد ثبت من وراء ذلك أن "الإنسان" كائن روحى، وكذلك هو كائن أدبى مسئول عن تصرفاته: إنه قد لا يفهم وقد يصبح بذلك مثل البهائم التى تباد - ولكنه مع ذلك ليس بواحد منها، بل أنه حتى بهذا الإنحطاط الظاهر إنما يدلل على أصله الأشرف، وذلك لأن البهيم لا يستطيع أن يحط من قدر نفسه - وأما الإنسان بكل هذه الاستطاعه الخطرة على فعل الشر بل بكل الشر نفسه ونشاطه الفعلى، له الشهادة فى نفسه على علاقته باللانهائى والأبدى - تلك العلاقة التى تنذره بمسئوليته رغماً عنه، وتربطه مع آماله أو مخاوفه، أو بهما كليهما بتلك الحياة الأخرى التى تعقب الموت، والتى رغم احتجاج جميع حواسه بحسب الظاهر، يؤمن بها إيماناً يكاد يكون إجماعياً ...

والآن من ذا الذى ينكر ما يتضمنه خلق الإنسان كما هو معطى لنا فى

الاصحاح الثانى من سفر التكوين؟ فإننا نرى هناك الهيكل الجسدى يتكون من تراب الأرض ومع أنه - تبارك اسمه - عمل بطريقة خاصة لتشكيله، كما لم يفعل فى حالة الحيوان، إلا أنه لا يقال عنه إنه أب لأجسادنا بل أبو أرواحنا. (عب ١٢: ٩) ولكننا رأينا أيضاً **أن الإنسان صار "نفساً حية"** ليس بتكوينه بتلك الطريقة الخاصة، ولا بتكوينه من الأرض إطلاقاً، **بل "بنفخة الله"** فيه. هذا لا يقال عن الحيوان! فإن البشر بسبب هذه النفخة هم ذرية الله بينما لا تعتبر الحيوانات ذريته، مع أنها هى أيضاً مخلوقاته! إنه ليس مجرد أبى أرواحنا بل هو أبو الأرواح - أى جميع هذه الطبقة من الكائنات، وهى مع أنها جميعها مخلوقاته، لكن لهذه بالله علاقة لا تتطاول إليها المخلوقات الأدنى، ومن هنا نرى لماذا يسمى «الملائكة» «أبناء الله» (أى ١: ٦ و٣٨: ٧) باعتبارهم «أرواحاً» وكذلك الإنسان فيه «روح» ولذلك فهو «ابن»!! وقد تمت له البنوية بنواله التبنى بالفداء الذى رد له مقامه واعتباره!!

ولكن ليس معنى ذلك ما ذكره د. ميز فى مؤتمر أكتوبر ١٩٧٩ بالفجالة وخلاصته: "أن نفخة الله فى الإنسان هى جزء منه، وهو يفسر عبارة "نفخ فيه" بأنه أعطاه جزء من ذاته" وأن الله لذلك يعتبر غير كامل بدون الإنسان وأنه لذلك يطلب ساجدين له لأنه يحتاجهم وهم يكملونه...."

وها هو الأخ ناشد حنا فى شريط له عنوانه: "حقيقة وجود الله" يعتبر أن الدليل على وجوده هو لأنه خالقنا ونحن منه فإن روح الإنسان - وهى تتميز عن نفس (أى حياة) الحيوان لكونها هى من الله من ذات الله... إلخ

ولكننا نعلم أن هناك فرقاً ملموساً بين النبات والحيوان تبين أن الحيوان يحيا حياة واعية (متحركة) إلى حد ما، وأما النبات فإن حياته حساسة فقط.. وبالتالى فإن هناك فرقاً بين الحيوان والإنسان فإن للحيوان نفساً أما الإنسان فله

نفس حية أى نفس تسكن فيها روح (تك ٢: ٧) ومن هذا الوجه يختلف الإنسان عن الحيوان، أما فيما يختص بالجسد نفسه يعتبر الاثنان واحداً، أى أن جسد الإنسان قد تكون بذات الأسس والأعضاء والوظائف كتلك التى تكون عليها جسد الحيوان..

أما حقيقة الروح التى تميز الإنسان لكونها نفخة من الله، فقد قيل عنها فى (زكريا ١٢: ١) عن الرب أنه "جابل روح الإنسان فى داخله"، ومن قول الحكيم سليمان فى (أمثال ٢٠: ٢٧) "أن نفس (أى روح) الإنسان هى سراج الرب" فهمنا أن هذه الروح هى "روح نورانية" شبيهة بأرواح الملائكة وهى لذلك سبب العلاقة مع الله - وأنه سبحانه طبعها بطابع الخلود والبقاء - فأراد لها ذلك - دون أن تكون هناك ضرورة تشترط لخلودها بأن تكون من ذات الله!!

وجدير بالذكر أن الكلمة العبرية المترجمة «جبل» مكتوبة فى حالة خلق الإنسان بنقطتين لا واحدة - كما فى الحيوانات - إشارة إلى أنها فى الإنسان من جبلتين ترابية وسمائية وهو ما قصده بولس فى قوله الوارد فى (أعمال ١٧: ٢٥): "إذ هو يعطى الجميع حياة ونفساً".

ونحن نرى إهمية ذلك لمجابهة الخوف من الموت: وهو أكثر المشاعر سيطرة على الإنسان، وفى الواقع ليست هناك قوة فى الوجود تستطيع أن تنتزع هذا الخوف الغريزى إلا قوة النعمة الإلهية التى فى المسيح يسوع. ولقد عرف المسيح الألم والموت واختبر أيضاً الانتصار على الموت.. ومن ثم فإن الخير الأعظم إنما هو فى صلتنا الحقيقية به فى كل الظروف بما فى ذلك الموت، فإنه لا يأتينا حينذاك كشئ غير متوقع، بل إننا بدون جسدنا هنا نرى الله (أى ١٩: ٢٧) ونكون معه، وسوف نصل إلى تمام هذه الشركة السعيدة عند قيامة الموتى وافتداء الأجساد.

وأما فى مأساة حياتنا التى نحياها حالياً تحت احتمالات الألم بالموت فإننا لن نجد ما يسندنا سوى تلك الصلة الوثيقة بالله التى نختبرها فى شخص ربنا ومخلصنا يسوع المسيح!!

* *

• **الوقوف على ما أعلنته العقيدة الدينية عن الحياة:**

تعلن الحقيقة الدينية لنا أن الحياة هى من منبع واحد هو رب الحياة وينبوعها، وأن الكائنات وإن كانت متباينة فى النوع ودرجة الارتقاء إلا أنها منه - وأن هذه الحياة قد تتغير ولكنا لا تتلاشى، ومع أن التغيير من شكل إلى آخر من الوجود يطلق عليه «الموت» إلا أن هذا لا يعنى قط إنهاء الحياة بل إنه لا يضيف إلى الحياة أو يقطع منها شيئاً جوهرياً.. وكل ما يفعله الموت إنما يغير شكل هذا الوجود من حالة إلى حالة أخرى:

فالشئ الذى يختفى من أمام أعيننا لا ينتهى بذلك وجوده، وإنما يعود للظهور فى حالة وشكل آخرين، وذلك لأنه لا شئ فى الكون قد خلق للفناء، لأن ذلك لا يتفق مع قصد الخالق، وإذا كان الأمر هكذا فكيف يتلاشى الإنسان تاج الخليقة وحامل صورة خالقه!؟

ولذلك ليس الموت هو المظهر الوحيد للمأساة الداخلية الملازمة لوجود الإنسان فى سعيه نحو الكمال المثالى، إذ أننا لو افترضنا أن البشر توصلوا أخيراً إلى التغلب على الموت فمشكلة الإنسان ليست مجرد استمرار زمنى لا نهاية له، بل هى التحقيق الكامل لإنسانية الإنسان تبقى مع ذلك غير محلولة. ذلك أن "الأبدية" التى يتوق إليها الإنسان والتلبية الشافية لتوقه إلى المطلق!! ومن ثم فإن المسألة تتعقد عندما نضطر أن نسلم بالضرورة بسأم لا يحتمل إذا استمرت حياة الإنسان بلا نهاية بوضعها الحالى بما هى عليه من النقص الكيانى - فيالها من مأساة فيما لو امتدت حياة الإنسان البيولوجية إلى مالانهاية له فى الأوضاع الأرضية الحالية!!

هذا يكشف عن "بركة الموت" - بعد السقوط - لكى لا يعيش الإنسان فى عالم كهذا وفى ظروف مثل هذه تعج بأمواج الدموع، والدماء، وتيارات الشقاء والألم والمعاناة بأنواعها فى دائرة جسده وفى دائرة الطبيعة أيضاً. فهل من الرحمة أن يترك الله الإنسان فى وضع كهذا أم أنها الرحمة الكبرى أن يكون هناك موت يحدث لإنهاء هذه الآلام.

على أن إيماننا يقفز بنا إلى أبعد من هذا: إنه يرينا الصلة العظيمة الكائنة بين «الكنيسة المجاهدة» على الأرض، والكنيسة الممجدة فى السماء، بين أرواحنا وبين أرواح الراحلين الذين يطلق عليهم اسم «الكنيسة المنتصرة» وهى كنيسة غير منظورة لعيوننا المجردة الآن ولكن اتصالنا الروحى بها قائم وهى فى عالم المجد ونحن بعد على الأرض!!

- **محور العقيدة الدينية المقابلة بين الحياة والموت:**

من الواضح أن أفكار الله تختلف عن أفكار البشر، فالإنسان يعتبر شخصاً ما أنه حى وهو فى نظر الله ميت (١تى ٥: ٦)، ويقول عن الناس الذين هم أحياء عند الله أنهم موتى (لو ١٢: ٣٧) - فما هى الحياة إذاً وما هو الموت بالنسبة للعقيدة الدينية:

إن الفكرة الشائعة والتى ينشرها المضلون العصريون هى أن الحياة والوجود كلمتان معناهما واحد، وبما إن الموت عكس الحياة فليس هو إذاً إلا عدم الوجود!!

ولذلك فإنهم يعتبرون الشخص الميت إنه قد غاب من الحياة والوجود أصلا، وكأن الإنسان لا يفرق عن البهائم فى نهايته ولكن كلمة الله تبين لنا الفرق الشاسع بين الحياة والوجود، لإنها تعلن إنتقال المؤمنين بالمسيح من الموت إلى الحياة وهذا لا يعنى مجرد وجودهم فى الحياة بل إن لهم الآن حياة أبدية فيهم، بينما

يقول المسيح لمعاصريه من اليهود: «ليس لكم حياة فيكم»!!

نعم لقد كان لهؤلاء الذين انتقلوا من الموت إلى الحياة وجود سابق يتمثل فى «الحياة الطبيعية» ولكن لم يكن لهم حياة لكونهم أمواتاً روحياً.. ومن المعلوم أن آدم وحواء لم ينفذ فيهما حكم الموت الطبيعى فوراً وإنما تم موتهما موتاً روحياً يوم العصيان نفسه، وهذا الموت الروحى هو موت حقيقى يعنى انفصال الروح عن الله مصدر كل حياة... لأننا إن كنا نعتبر فقدان الفضيلة موتاً أدبياً، فكم بالحرى تلك السقطة الأولى من البراءة إلى المذنوبية!؟ فهذا هو الموت الحالى فى معناه العميق الكامل. وهو الذى يضم فى دائرته كل من لم يحصل على الحياة الروحية - وهى أبدية - بالميلاد الثانى فى ملكوت الله.

لقد أكد المسيح ذلك بأن ذكر عن الذى أراد أن يسمح له بأن يذهب ليدفن أباه أولا بالقول: «دع الموتى يدفنون موتاهم» وبعبارة أخرى قصد أن يقول له: «دع الموتى روحياً يدفنون موتاهم جسدياً» مما يتضح منه أن الميت روحياً هو فى حالة مماثلة للذى مات بالجسد بل أقسى لأن عدم وجود صلة بين الإنسان الطبيعى والعالم الروحى إنما مرجعه موته الروحى، وهو شبيه بالفرق بين الحى والميت بالنسبة للحياة الطبيعية!!

* *

ولاشك أن الحياة هنا بمجموعة أعمالها تقاوم «الموت» ذلك الناموس العام الذى دخل بسبب العصيان، وأصبح العدو الأكبر للإنسان لإنه يسير به فى اتجاه المجهول المطلق بالنسبة للعقل، واكتفى كثيرون بأن يروه كمجرد عكس الحياة.

لكننا نعلم من وجه آخر إن الموت لايزال أرضاً مجهولة لم يستطع **العلم** اكتشافها، يقترب **الشعر** نحوه ويحوم حوله بضع لحظات ولكنه سرعان ما ينسحب - وأما **التاريخ** فيعرف الموت مجرد حقيقة عامة، فى حين أن **الفلسفة** تجده بين أسرارها وترى معناه سر غياب الوجود ليس إلا...

وبالاجمال فإن كل ما كتبه البشر عن الموت إنما هو فى الواقع تعبيرات غامضة لا تخترق ظل الموت القاتم المرعب فقد رأينا أنه بالنسبة لسائر الكائنات - بحسب باطن علم الأحياء - نجد أن حياة الكائن الحى أنما بنسبة علاقاته بالبيئة التى تحيط به، وفيما عدا ذلك فأنها تعتبر ميتة، لأنها بالنسبة لجانب كبير من البيئة فاقدة للشعور بما يمكن أن نطلق عليه «موت عدم الأستجابة»!!

وهذا ما ينطبق على الإنسان أيضاً وهو أرقى كائن حى فإن كل حاسة فيه تتصل بشئ ما ولذلك فالإنسان كتلة من العلاقات، ولهذا السبب أى لكونه يحيا لما لا يعد أو يحصى من الأغراض والمؤثرات التى تعتبر الكائنات الأدنى ميتة بالنسبة لها فهو أكثر المخلوقات حياة!!

إذاً فالموت نسبى وسائر الكائنات حية ميتة أى جزئياً حية وجزئياً ميتة - فهى حية فى حدود بيئتها المحدودة ولكنها لما عدا ذلك ميتة... حية لما فى دائرة علاقاتها - وميته فيما عدا ذلك. ويكمن رقى الإنسان فى أنه كائن يتصل بكل البيئة وبذلك نجد أن سلطان الموت يضعف كلما اتسعت البيئة وبمقدار تمكنا من الأتصال بها مما يزيد من حيويتنا، وسلطنة الحياة بهذه الطريقة تمتد ببطء فى دائرة دائمة الأتساع.

ولكن يعترضنا هنا هذا السؤال الهام: "هل الإنسان نفسه فى اتصال كامل بكل بيئته حتى نضرب مملكة الموت بالضربة القاضية؟ «هل استولى الإنسان على أخر فدان من المساحة غير المحدودة بقوته المحدودة؟ وهل بيئة الإنسان الشعورية هى كل البيئة أم أن هناك بيئة أخرى لا يشعر بها؟، فتلك التى يشعر بها ليست هى كل البيئة لأن كل ما يحيط بالإنسان فهو بيئته إطلاقاً سواء شعر به أم لم يشعر، رآه أو لم يره، ففى أشمل معنى نجد أن البيئة هى كل شئ عداه... فأن وراء البيئة الشعورية دائرة خارجية فشل الإنسان الطبيعى فى الوصول إليها؟ وهذا هو الموت، الفشل فى الوصول إلى

تلك الدائرة والأتصال بها والتأثر بالعلاقة معها لذلك فهو بالنسبة لها ميت!

فهل الإنسان عملياً متصل بكل بيئته أم لا؟ ليس هناك إلا جواب واحد وهو أنه ليس كذلك - فلا يمكن أن يقال عن الناس عموماً أنهم فى صلة حية بهذا الجزء من البيئة الذى نسميه «العالم الروحى» - وهو الدائرة الخارجية للعالم الطبيعى، وفى سبيل التمييز بينهما فأننا نفصلهما كما نفصل العالم الحيوانى عن النباتى، وهما مع ذلك جزءان متنوعان لبيئة واحدة جانب منها داخلى والأخر خارجى **وأليس من الواضح ان معظم الناس ليسوا فى علاقة بهذه الدائرة الخارجية؟ فلنفرض أننا سميناها "الله"، واستبدلنا "الاتصال" ب "الشركة": فالذين بناء على ذلك فى شركة مع الله يحيون والذين ليسوا كذلك هم أموات... وهكذا وجدنا أن الموت الروحى فى طبيعتة هو الوجود الذى لا يحتوى على الشركة مع الله**: فالشخص غير الروحى هو الذى يعيش فى دائرة العالم الحاضر أى «إهتمام الجسد الذى هو موت»، ومعنى موت الجسد فى عرف العلم هو تحديد العلاقة بين الإنسان وبيئته الطبيعية وحصر اتصاله بها... صحيح أن بمقدور حياة الجسد أن تكمل ذاتها فى العالم الطبيعى لأن هذه هى بيئتها الشرعية، وحياة الحواس يمكن أن تكمن فى الطبيعة، بل وحتى حياة الفكر قد تجد كمالا فيما يحيط بها. **ولكن الشعور الأعلى والضمير النبيل والحياة الروحية لا يمكن أن يتكملوا إلا فى الله** - فإيقاف تأثير البيئة لحدود العالم الطبيعى معناه الحكم على الطبيعة الروحية بالموت... فإذ طلبنا الكمال فى العالم الروحى **نجده فى كمال العلاقة، وكمال التوافق بين ما هو كامل وما هو صائر نحو الكمال!!**

ومن هنا فإن توجيه قدراتنا للتفكير فيما هو للجسد والاهتمام به هو الموت الروحى دون أن يستلزم أن يكون ذلك الاهتمام شريراً ... بل قد يكون شريفاً وراقياً، ولكنه مادام لم يعرف الله وليست له علاقة به، فإنه حتى لو اتصل بالنجوم وأمسك بالزمن والمسافة فإنه ليس روحياً! وصحيح أن لهذا الاهتمام

حياة حسب مستواه وبيئته لا أثر للموت فيها، وقد يعيش حسب ذلك باكتفاء تام، وليس من المفروض أن نصور اهتمام الجسد بالرداءة فى أى معنى بل كما قلنا قد يكون عالياً وفاضلا، ولكنه ميت بالنسبة للعالم الروحى وذلك ليس بحسب إعلان الوحى فحسب بل بشهادة الموتى أنفسهم، فإن آلافاً منهم بل ربوات يشهدون عن أنفسهم بعدم وجود علاقة بينهم وبين العالم الروحى وهم بذلك يعترفون بموتهم الروحى!!

وتبعاً لذلك يأتى "الموت الأدبى" لغياب النور الحقيقى والحياة الروحية: والواقع يشهد بأن هناك كسوفاً جزئياً بل وكلياً للفضيلة يتبع دائماً هجر الاعتقاد بالله - وليس المعنى أن الحالة الأدبية اختفت بل إن دافعها المقدس زال، ولا شئ هناك ليقيمها من الموت!!

وذلك لأن البيئة الحقيقية للحياة الأدبية - كالحياة الروحية تماماً - هى الله: هنا يستيقظ الضمير وتشتعل المحبة، وهنا يحيا البر أبدياً... ولكن بدون «الله» - كبيئة الحياة الحقيقية - تصغر النفس وتهلك وتموت، وهذا أمر طبيعى، فالبيئة هى السبب وتأثيرها يتناسب تماماً مع مدى الاتصال بها، وبمقدار ما يتسع ويرتقى هذا الاتصال بمقدار ما يكون صاحبه روحياً سماوياً، ورفض مثل هذا النمو الروحى معناه إنكار اسمى الحقوق المؤسسة على العلم والدين معاً، وبذلك نجد أن النفس تصغر بحرمانها من البيئة الكاملة، نفس كهذه قد يكون لها اسم بأنها حية وهى ميتة!!

* *

ولكن بلوغ هذا الهدف - أى وصول الإنسان إلى نطاق الحياة الكاملة وملئها يحتم على كل من له أذنان للسمع أن يسمع، وليس ذلك فقط بل عليه أن يستخدم كافة حواسه الطبيعية لأجل نوال الحياة الأبدية ابتداء بالسمع: أى أن يسمع كلام المسيح ويؤمن به إتماماً للوعد القائل: اسمعوا فتحيا أنفسكم» (إش ٥٥: ٣) وأيضاً: «تأتى ساعة وهى الآن فيها

يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون» (يو ٥: ٢٥)، ونرى من ذلك المسئولية الخطيرة من جهة ضرورة الالتزام بتقدير الفرصة المباركة المعروضة على الأموات روحياً لكى يسمعوا كلمة الرب وبالإيمان بها يحيون، «الإيمان بالخبر، والخبر بكلمة الله» (رو ١٠: ١٧) ومعلوم أن قبول كلمة المسيح كقبول شخصه تماماً، ورفضها بمثابة رفض له (يو ١٢: ٤٨) وذلك لأن المسيح قد أعلن عن ذاته باعلان خطير نصه : «أنا هو القيامة والحياة» مؤكداً بأن الخاطئ الميت ينال الحياة بالإيمان به، ومتى نال تلك الحياة فلن يموت ثانية كقوله: «من آمن بى ولو مات (الموت الطبيعى)، موت (الجسد) فسيحيا، وكل من آمن به وكان (أى صار) حياً (روحياً) فلن يموت (روحياً) إلى الأبد (يو ١١: ٢٥ و٢٦).

وإذاً فإن الحياة الحقيقية تبدأ فى أرواحنا الآن، وأما تأكيد الحياة لأجسادنا فنجده فى القول: «أنا هو القيامة» ويزداد ظهوراً فى قوله: «كل ما أعطانى الآب لا أتلف منه شيئاً بل أقيمه فى اليوم الأخير» وهذا الفعل أقيمه يتكرر أربع مرات فى (يو ٦: ٣٩، ٤٠، ٤٤، ٤٥)

ولاشك أن هذه اللغة محبوبة جداً عند الذين نالوا الحياة الروحية - وهى أبدية بالطبع - ممن قد بدأت تظهر فيهم هذه الحياة بعلاماتها القاطعة الأكيدة. ولكن ماذا بخصوص الذين لم ينالوها بعد؟ نعلم من كلمة الله أن لهم حياة طبيعية أى - فى الجسد - وهم موجودون بسببها، ولكنهم مع ذلك ماكثون فى الموت، وهذه هى حالتهم الحاضرة وأن لم تتغير هذه الحالة فأى مصير ينتظرهم ياترى فى الأبدية؟ كيف ستكون حالتهم!؟ أنهم سيدانون مما هو مكتوب فى أسفارهم (أى سجلات حياتهم الزمنية) ولن تنفعهم أعمالهم عندئذ بشئ! ولذلك فان موت الجسد العارض الذى يهتمون له اهتماماً كبيراً بأعتباره حادثة عظيمة ويعملون له ألف حساب وحساب، ليس بشئ إزاء موتهم الروحى الحالى، كما أنه ليس نهاية كل شئ، «لأنه قد وضع للناس أن يموتوا مرة ثم بعد ذلك الدينونة» (عب ٩: ٢٧) ونحن نفهم طبعاً أن عقاب الخطية يتبع الدينونة لا يسبقها - فالموت

إذاً الذى هو عقاب الخطية ليس هو الموت الطبيعى الشائع مع أهواله، بل هو الموت الثانى الرهيب الذى هو الطرح فى بحيرة النار...!

* * * *

أما بالنسبة للمؤمنين بالمسيح فانهم لا يستطيعون أن يرثوا ملكوت السموات بحالتهم الحاضرة: «لأن دماً ولحماً لا يرثان ملكوت الله» (١كو ١٥: ٥٠) إذ لا يرى الفساد - أى الحالة الحاضرة التى لأجسادنا - عدم الفساد وهذه العبارات المستعملة هنا مثل «عدم الموت - وعدم الفساد» إنما ترتبط بالقيامة، وهى لا تطبق على غير الجسد، عند فداء أجسادنا بعد أن ينتهى دور الموت بالقيامة. ولأجل ذلك فإننا قد نجتاز فى الموت ولكننا لا نجوز تحته «كمائتين وها نحن نحيا» (٢كو ٦: ٩) **وما الموت الطبيعى إلا تأكيد لإستحالة وجودنا فى السماء بهذا الجسد الترابى الحالى!!**

فنحن نعيش الآن على هذه الأرض بجسد ترابى ساقط نشابه من جهته كل الناس، فليس هناك ثمة اختلاف بين مؤمن تقى وخاطئ شرير فى أجهزة الجسم وعملية الهضم والتنفس وغيرهما ... إلخ

ورغم حرص المؤمن على روحنة جسده فأنه إذا لم يلحقه دور الإختطاف - فسيزرع فى فساد إلى حين إبطال الموت فعلياً ونهائياً... وفى حديث الرب مع الصدوقيين يقول أن أبناء القيامة يكونون كالملائكة وهم أبناء الله لا يموتون (لو ٢٠: ٣٦): **لأن الأجساد الكثيفة لا تلائم الخلود وهذا هو سبب إستحالة أن يرث الدم واللحم ملكوت السموات**.. ونحن فى المجد فقط نصبح أبناء القيامة أى أن أجسادنا الفاسدة التى كانت عرضة للموت وقد بلغت السماء الآن صارت خالدة فوق كل زمان ومكان وإذاً فإن تجلى الجسد وفداءه وتمجيده لن يكون بالتمام إلا فى قيامة الأموات. يقول أثناسيوس: «إنه لما سقط آدم تلوثت الخليقة المادية كلها بهذه السقطة. وهذه هى عبودية الفساد التى سرت إلى الكون كله. وأما الكلمة فبتجسده قد عاش فى عالمنا تحت ناموس

الطبيعة ليقدس كل ما فى الطبيعة، ولم يعد هناك شيئاً نجساً بل أحياناً يحدث تحرر من المرض وتحكم فى الوحوش. ومع ذلك فإن الجسد الإنسانى لم يفند ولذلك لم تتجل معه بعد الخليقة المادية (رومية ٨: ١٩ - ٢٣)

ومن ثم يتبين لنا الفرق بين حالة أجسادنا الآن وحالتها بعد القيامة: فإنها وإن كانت على هيئة حيوانية آلية الآن لكى تكون فى حالة تناسب إقامتها على الأرض، ولهذا السبب تأتى الإشارة إلى هذا الجسد الطبيعى كجسم حيوانى (١كو ١٥: ٤٤) إلا إن هذه الأجساد بعينها ستصير فيا بعد على حالة أخرى تناسب إقامتها فى السماء - **ومعنى ذلك إن الله خلق أجسادنا هذه للخلود والحياة** وهى لذلك تختلف عن أجساد الحيوانات، فإن هذه للفناء والملاشاة وإن كانت حسب الظاهر تجتمعان إلى نهاية واحدة يشير إليها سليمان فى سفر الجامعة ولكنه يؤكد بها نهاية أجسادنا الحالية القابلة للفساد والمعرضة للأحداث والتلف والتغيرات، فهو لا يقصد انتفاء قيامتها وتمجيدها فيما بعد، وإنما يبين انتهاءها حالياً من جهة العمليات الفسيولوجية من بناء الخلايا وتجديدها وهى التى تحترق كل يوم إلى أن نحصل على الأجساد الممجدة ....!

أما الرسول بولس فيستعرض الموضوع بنظرة أشمل مبيناً بأن هناك جسماً حيوانياً وجسماً روحانياً... لكن ليس الروحانى أولا بل الحيوانى (١كو ١٥: ٤٦) هذا هو ترتيب الله دائماً أن يأتى بما هو حسب الجسد أولا ثم بما هو حسب الروح بعد ذلك - الإنسان الأول من الأرض ترابى، خلق من تراب الأرض وكانت الأرض مسكنه وأما الثانى فهو الرب من السماء الذى أعد لنا مكاناً فيها حتى نكون معه فى صورته ومجده، ووصف الحالة الأولى بالحيوانية إنما هو إشارة إلى أجسادنا الحالية وتركيبها الذى يتفق مع البيئة التى نعيش فيها الآن إذ نحتاج إلى التنفس وما أشبه، ولكننا لن نحتاج إلى أشياء كهذه بعد القيامة ....

وواضح أن أجسادنا الحالية مقيدة بالضعفات (التحديدات) التى سيكون الجسد المتغير متحرراً منها، فإن الجسم الروحانى لن يكون قابلا لها إذ لن تكون

فيه ضعفات أجسادنا الحالية المشكلة بحيوية قائمة فى اللحم والدم ليناسب النفس الحيوانية التى تتحكم فيه وتسوده الآن أما فيما بعد فإن الروح (روح الإنسان نفسه) هى التى ستهيمن تماماً على الجسد الروحانى الجديد... وهكذا سيتم هذا التغيير العظيم الذى نتوقعه!! وليس هذا الجسم الروحانى وهماً أو خيالا ولكنه جسم حقيقى (غير مادى) وهو مما يتناسب مع العالم الروحى فهو عالم حقيقى كعالمنا المادى الذى نعيش فيه الآن، إذ لا يمكن تصور وجود كائنات سماوية فى أماكن محددة الموقع والوصف بدون شكل حجم يحدد معالمها...!!

* *

• **تحديد موقف العقيدة الدينية من الموت :**

ولكن من جهة أخرى تنظر العقيدة المسيحية إلى «الموت» فلا ترى فيه مجرد نهاية طبيعيه للحياة، بل تراه نغمة نشاز فى سمفونية الوجود فهو نتيجة سلسلة من الأخطاء بدأت منذ البداية:

فإن مخطط الله عن الخلق لم يكن فيه مكان للموت للكائنات الحية وعلى رأسها الإنسان لو سارت الأمور كلها فى طريقها الصحيح، فالله منبع الحياة وواهبها لا يمكن أن يوجد الحياة لكى يعود يحطمها بمطرقة الموت وكأنه أوجدها هباء... لذلك فإن الموت هو نتيجة كسر ناموس الله، ناموس الطبيعة - إن الله حينما خلق الوجود لم يضع الموت فى برنامجه، ولكن بالخطية دخل الموت إلى كل عناصر هذا الوجود الحى وغير الحى فأصبح كل شئ فى غير موضعه - **إلا أن الله قد تدخل لإعادة الخليقة إلى طبيعة ما قبل السقوط...**

لكن الطبيعيين - وقد رفضوا عقيدة السقوط هذه فقد وقفوا مستغربين أمام الطبيعة التى تقوم بتحطيم الإنسان الذى صنعته - على حد قولهم - **وهكذا يستغلق عليهم الأمر ويزداد بعدهم عن إدراكه!!**

أما الأعلان الإلهى فيستطرد إلى الكشف عن حقيقة الموت بحسب المفهوم الكتابى ويرينا إياه كحالة "انفصال عن الله" والكتاب هنا لا يضع حداً فاصلا بين الحياة الروحية والحياة الزمنية، ولا بين الموت الروحى والموت الزمنى، **فهو يستخدم نفس الكلمة بلا تمييز للدلالة على انتهاء الحياة الزمنية، كما للإشارة إلى حالة الأنفصال عن الله...** نفس الكلمة كمدلول على كلتا الحالتين.. والكتاب لا يقلل من قيمة الموت الزمنى، فهو لا يتحدث عنه بأستخفاف ولا يعتبره شيئاً تافهاً - كما تحاول الفلسفات المعاصرة أن تصوره، بل أنه يبين خطورته بطريقة تجعل التفكير السليم يتراجع عن قبول الموت بدون المسيح ...

هنا فى اللحظة التى فيها يظهر عرق الموت الذى يخبر الإنسان بأن ساعته قد دنت، لقد انتهى كل شئ الآن، الفرصة قد مضت والأبدية قد تقررت : إن المشاعر التى تختلج فى نفوس المحتضرين حينئذ لا يمكن التعبير عنها لدى الأحياء قبل حدوثها، ولكل شخص بمفرده فى مواجهة الأبدية تأتى تلك الأفكار مرة واحدة فقط، فلا يمكن لإنسان ما أن يتحدث عنها بخفة، إذ لا يمكن إختبارها إلا فى وقت مواجهة الموت!!

وهكذا يضع الكتاب "الموت" فى موضعه الصحيح كأعظم مشاكل الإنسانية المعذبة، فهو يصور لنا فى صورة واقعية العذاب الذى يلاقيه الإنسان أمام الموت، ولكن الكتاب مع ذلك لا يسلمنا لليأس بل يعلن لنا أن الموت هو "آخر عدو يبطل" ...

ومن هنا نرى بداهة كيف أن الخوف من الموت شعور طبيعى لدى كل إنسان وليس معناه قلة الإيمان، إن هذا الخوف يكمن فى أعماق عقولنا الباطنة حتى وإن كنا نحاول بكبرياء أن ننكره كما يقول (بسكال)!! فإننا نقضى سحابة عمرنا محاولين أن نتجنب التفكير فى الموت ولكن الحقيقة كما يقول (يونج) أن هذا الإحساس يكمن فى أعماق اللاشعور، ولذلك فإننا نختبر الموت فى وسط الحياة

وهو يلعب دوراً رئيسياً فيها ...

ومع ذلك فإننا لا نعرف معنى الموت وحقيقته إذ هو يقع فى دائرة أسرار الله، والإيمان ينبغى أن يحترم الأسرار الإلهية ولا يحاول التطفل عليها، وهذا ما يجب أن نقف عند حده وعلى الأقل بالنسبة للحياة الحاضرة التى ننظر فيها فى مرآة فى لغز (أى غير واضحة)!!

* *

ولاشك أن أشد عذابات الموت هو إنتهاء هذا الوجود الظاهرى بانتزاع الحياة من كل الأشياء الملتصقة بها، إن فكرة الإنفصال فيها عذاب نفسى عميق فى كيان صاحبه. **فإن غريزة الحياة هى أشد وأقوى الغرائز، ولكن الظلام الذى يرافق الموت يجعل إحساس الخوف من جهة بقاء كينونة الإنسان بعد فنائها المنظور متملكاً للغاية وخاصة فى ساعة الإحتضار:**

هذا هو الدافع الذى لا يخبو، وهو الذى يدفع للجهاد فى سبيل الحياة رغم ما فى العالم من بؤس وشقاء - وليست مظاهر الحضارة الحالية إلا تعبيراً عن الوجود الإنسانى، وهذا فى حقيقة الأمر أكثر من مجرد الإتجاه نحو العظمة: **إنه صراع الحياة ضد الموت، وهو الاعلان عن أن أول وأهم ما يبحث عنه الفرد والمجموع هو الوجود.** لذا نجد كل إنسان يجاهد ويعمل المستحيل لكى يعيش حتى ولو كان كل شئ ضده، وهو لن يحلم بأى شئ مثلما بحلمه اللذيذ أن يكون حياً وموجوداً. **هذا هو السبب الحقيقى لنفورنا من الموت، لأن الموت يحمل إلينا فكرة عدم الوجود.** فعندما نموت نحن نسلم فى كل ما لنا علاقة به فى هذا الوجود، فإن كل ما نعرفه عن الحياة يرتبط فى شكل أو جسم مادى، والآن إذ يذوب ذلك الجسم إلى لا شئ فإن أشجع القلوب يرتعب أمام فكرة الإنتهاء هذه ...

يحاول العلم عبثاً أن يبحث عن المسببات الكامنة وراء ظواهر

الأشياء، ولكن صفوة العلماء يشعرون أكثر من غيرهم بمحدودية العلم وعدم تمكنه من الإحاطة بكل محتويات هذا الوجود، وتقديم الحل لمشاكل الحياة والموت، وغيرهما من الأسرار والألغاز المحيرة كالخليقة والألم والأبدية ...

وهو لا يعلم شيئاً عن الموت الروحى الذى بدأ بالعصيان، وهو الممهد للموت العضوى (الوظيفى) الخاص باضمحلال هذا الجسد بسبب سلطان حكم الموت فى السريان عليه - ويحاول العلم أن يبحث أيضاً هل موت الجسد يتم نتيجة موت أعضائه تدريجياً أم على العكس هو نتيجة الموت الكلى العام، دون أن يعنيه بأن هذه الفترة التى تعطى للإنسان لكى يحياها فى الجسد إنما هى فترة يقررها إمهال الله، وقد تطول هذه الفترة وقد تقصر، ولكن العبرة هى فى استخدامها لإعداد النفس للحياة الأخرى!!

* *

ثم إن هناك عذاباً آخر للموت هو ألم الافتراق: وهذا ما تحس به الطبيعة البشرية عادة، فإن العواطف تقوى مع مرور الزمن، وقد يحاول الإنسان كلما تقدم فى السن أن يطوى الكثير من التعابير تحت تجعيدات الوجه، ولكنه بلاشك قد التصق بمناظر وأحداث محبوبة لديه كلما تقدم به الزمن، وحينما يأتى وقت الرحيل يكون ذلك كتمزيق قلبه منها، ذلك يظهر فيه ميل غريزى للإبطاء ليلقى الإنسان آخر نظرة على أشياء لن يعود يراها. هذا ما يجعل الموت مراً، أنه يفصل القلب عن كل محبوب ومرغوب!

على أن الاختبار الدينى هنا - وهو جماع تفاعل الإنسان مع الحياة الحاضرة من الوجهة الروحية - هو الذى يلون طريق الحياة العادى فيجعله جذاباً يشرق عليه نور العالم الآخر ...

فلاشك أن الاختبار المسيحى يخلق ويثبت كل القيم الروحية المباركة،

ويمنح التوافق والإنسجام والشجاعة فى مواجهة أحداث الحياة، ويعطى الثقة الكاملة عند الموت!

* *

ومع ذلك فإن هناك نوعاً أخيراً من عذاب الموت هو الشعور بالوحشة والانفراد، فهو شبيه برحلة نحو أرض مجهولة: وهنا يغادر المسافر بلاده بما فيها من صداقة ورفقة وهو لا يعرف ماذا سيصادفه، ولكن كل ما يذكر فى هذا الشأن ليس بشئ أمام وحشة الموت. فإن من يموت يموت وحده، ويذهب كل منا فى هذه الرحلة الغامضة منفرداً بدون رفيق!!

المسيحى فقط هو الذى يشعر بقرب ربه منه حينئذ أكثر من ذى قبل، وأما فيما عدا ذلك فإن الأصدقاء يتخلفون عنا، ويسأل الإنسان نفسه عند الرحيل: «ترى ماذا سأرى ومن سأقابل؟»

هنا يتذكر غير التائب ذنوبه وهذه بدورها تؤنبه ساعة موته - هذه هى شوكة الموت، ولكن أين نهر النسيان لينسى الإنسان ذاته. ويتخلص منه؟ قد لا تكون فكرة الموت ضاغطة أحياناً، وقد نعيش أعواماً قبل أن يزور الموت بيتنا ونتذكر أنه محتوم علينا ولكننا حتى بعد أن نتعود الموت فإننا لا نتوقعه لا فى صحة ولا فى مرض - **ولكن هل بالإمكان تجاهل حقيقة الموت الكبرى هذه فى سائر الأحوال!؟**

هنا تبدو المسيحية بلمعانها الفريد فهى تقرر كل ما سلف ذكره ولكنها تكشف أيضاً عن سر الموت: فتعلنه كنتيجة للسقوط والحكم الإلهى المعلن بسببه، فتقرر بأنه لولا الخطية ما كان هناك موت، وما كان قد دخل الموت إلى العالم مطلقاً: «إن تعدى الإنسان على الشريعة هو الذى أعطى للموت قوته الشرعية» فإن قوة الخطية هى الناموس إذ بدون الناموس الخطية لا تحسب «الناموس إذاً يجعل الخطية محزنة بالأكثر لتوضيح إرادة الله التى قابلها

الإنسان بالعصيان. ولكن المسيحية لا تقف عند هذا الحد، وإنما تذهب إلى ما هو وراءه لتعلن لنا غلبتنا على الموت بالإيمان - وهذا النظر إلى المستقبل بثقة يرفع الإنسان المؤمن فوق مشاعر الحاضر الضيقة، ويجعله يتحقق بأن وراء صراع الحياة ورقدة الموت حياة أبدية، فليس القبر هو نهاية كل شئ بل هو الواسطة والباب بيننا وبين النهاية!!

* *

وهكذا نصل إلى أن حديث الدين عن معنى الحياة والموت والطبيعة والوجود والأحداث، ليس من قبيل الدجل بل هو وثائق ثابتة تستند إلى اختبارات مؤكدة، وهو ينبع من أعماق روح الإنسان ووجدانه الصادق الأصيل... فى حين أن العلم مهما قدم للإنسان من وسائل حضارية، فإنه لن يحل هذه المشاكل، كما لم تستطع الفلسفة أن تشبع القلب أو تهب السلام للضمير.

ولذلك فإننا وقد تأكد لنا عجز العلم والفلسفة عن إيجاد حل لمشكلة الموت نجد على النقيض من ذلك "الحل المسيحى":
ومن باب المقارنة فى ضوء ما سردناه نستطيع أن نرى كيف انهزمت الفلسفات الملحدة والعلم الكاذب الاسم أمام الموت - وكيف أن محاولاتهما فى دفع البشرية لمواجهة الموت بشجاعة وبطولة إنما هى محاولات فاشلة، كما أن التسليم الاستسلامى بضرورة الموت الحتمية ليس هو بالحل السليم إذ لا يقدم أى رجاء للبشر فى عالم يسوده الموت، بل هنا هو اليأس بعينه البادى فى تقبل ما يراه الإنسان حقيقة واقعة باستسلام لن يجدى نفعاً، بل إن ذلك يجعل الموت أخذاً وغدراً بالأكثر!!

* *

هنا تعطى المسيحية إيماناً ثابتاً بالقيامة، وهو الذى يغلب الموت ويبدأ بهزيمة الشك: إن غير المؤمن يرى الكفن ويراوده الفكر بأن الوجود

فيما بعد الموت فى عالم آخر قد يكون مجرد حلم مريح اخترعه العقل، وصار تقليداً محترماً من جيل إلى جيل.. ولكن المسيح يعطينا غلبة بقيامته، فإن القبر سلم من فيه أكثر من مرة تحت أمره، **حتى صار من جماع الرأى المتفق عليه أن آية المسيح الكبرى "هى إقامة الموتى"، بل إن قيامته بالذات هى التى فتحت لنا العالم الروحى منذ الآن**، حتى إننا نستطيع بالإيمان أن نرى الأشياء غير المنظورة ونتحقق من وجودها روحياً. فالإيمان يجعلنا نحيا فى السماء فى العالم الآخر ونحن بعد هنا على الأرض، فنمسك بأشياء يحاول الناس تحسسها باللمس، وهذه أولى نصرات الإيمان على الشك فيما وراء الموت.

كذلك يعطى الإيمان المسيحى غلبة على الخوف من الموت برغم ما يحيط به من رعب وظلام حتى بالنسبة لأقدس الناس؛ ولذلك فإن القديس ينتظر الموت بفارغ الصبر. وهنا نشاهد الشجاعة المسيحية فى هدوئها اللاشعورى تجاه الموت وكأنه أضحى بها شيئاً عادياً مألوفاً بل ومرحباً به، لدرجة أن الاستشهاد عينه لم يستطع أن ينزع كلمة «الغلبة» من شفاه المسيحيين، فهى إلى اليوم والغد غلبة تامة لأنها غلبة المسيح نفسه، وهى عميقة فى نفوسهم، ضامنة لهم أثناء اجتيازهم الموت!!

وأخيراً تقدم المسيحية أمجد مواعيدها بالغلبة على الموت نفسه وذلك بما سيتم عند القيامة، ومن ثم فإننا وإن كنا نموت كغيرنا، إلا أننا كمسيحيين نرفض أن نسلم بانتصار الموت، بل ننظر بتحد إلى النهاية التى سينتهى عندها... صحيح إننا إزاء الانحلال الحالى بالموت نعرف من هو المنتصر الآن إذ يبدو وأمامنا إن الموت هو الغالب والإنسان هو المغلوب على أمره، ولكن ذلك إنما إلى حين، إلى فجر القيامة، بدء النهار الأبدى، نعم ما أكثر الشقاء الموجود فى العالم اليوم بسبب الموت، **ولكن سيأتى اليوم الذى فيه تتغير الحالة تماماً وينتهى الموت إلى الأبد!!**

ولا حاجة بنا أن ننبر هنا على إيجابية الكتاب المقدس من جهة هذا التغيير القادم معلناً بذلك تأكيد حقيقة الخلود الذى به يظهر انتصار الله النهائى على الموت، فالموت لا يوجد فيما بعد عندما يأتى الوقت إلى توقيت القيامة الشاملة على عتبة الأبدية!!

* * * *

خاتمة

أقوال أدبية عن الحياة والموت

• **فى الحياة والموت :**

الحياة والموت واحد - فإن أردتم أن تعرفوا أسرار الموت فافتحوا أبواب قلوبكم على مصاريعها لكنه الحياة ..

أليس انقطاع النفس من دورانه المتواصل سوى النهوض من سجنه لكى يستطيع أن يحلق فى الفضاء ساعياً إلى خالقه من غير قيد أو تعويق وإذاً سوف أبلغ الكمال وأرجع إلى الله :

لقد أتيت من عالم الأرواح بل من إله الأرواح ولسوف تنتهى الأيام وأرجع إلى حيث أتيت!! أنت يا نفس تفرحين بالآخرة قبل مجئ الآخرة، وأما هذا الجسد فإنه يشقى بالحياة وهو فى الحياة!! أنت يا نفسى تسيرين نحو الأبدية بسرعة، وأما هذا الجسد فهو يخطو نحو الفناء ببطء، فلا أنت تتمهلين ولا هو يسرع.

• **حول نشيد الإنسان :**

خلقت منذ البدء وهأنذا موجود وسأبقى إلى أبد الدهور لأنه ليس لكيانى انقضاء!! سبحت فى فضاء اللانهاية وطرت فى عالم الخيال وفككت أسرار الطبيعة واقتربت من دائرة النور الأعلى وها أنا سجين المادة!!

سمعت تعليم الحكماء وأصغيت إلى حكمة الفهماء وجلست بقرب شجرة المعرفة وهأنذا أغالب الجهل والجمود!!

شاهدت مجد بابل وفلسفة اليونان وعظمة الرومان وحضارة الفراعنة ولم أزل أرى علامات الضعف والصغر بادية فى جميع تلك الأعمال!!

جالست كهنة مصر وأشور وأنبياء فلسطين وفلاسفة اليونان وحكماء الصين وما برحت أنشد الحقيقة!!

أحتملت قسوة الفاتحين وقاسيت ظلم الطامعين واستبداد المتسلطين وطغيان الباغين وما برحت ذا قوة أكافح الأيام!!

حفظت الحكمة التى نزلت على الهند واستظهرت الشعر المتدفق من قلوب العرب وواعيت الموسيقا المتجسمة فى عواطف أهل الغرب ومازلت أعمى لا أرى وأصم لا أسمع..!!

كنت على الطور حين تجلى «يهوه» لموسى وفى عبر الأردن فرأيت معجزات «الناصرى» ومازلت إلى الآن أسير الحيرة!!

سمعت كل هذا وأنا طفل وشاهدته وأنا شاب ولسوف أشيخ يوماً وأبلغ الكمال فأرجع إلى الله!!

* **هذه هى الحياة :**

«أنطلق فى طرق الشوق شامخ الرأس عال الجبهة مضموم القبضة ولا تتقهقر ...! احترق أملا ورغبة وتعذب! احترق طموحاً وعزة وتغلب! احترق كفاحاً ونضالا وعش !..

* لأن هذه هى الحياة!!

«إذا خاب أملك فاجعل من الخيبة حافزاً وإذا وهن عزمك فاصنع من التعب سوطاً.. وإذا انتابك اليأس فاخلق من اليأس ناراً تضرم فيك شعلة الجنون وتلهبك نحو مثالك الأعلى..! احترق ضعفاً وقوة وتعذب! احترق ألماً ولذة وعش!.. **لأن هذه هى الحياة!!**"

«كن صبوراً ولكن لا تتململ، كن جريئاً ولكن لا تتهور، كن حازماً ولكن لا تتجبر.. احترق تجربة وحكمة وتعذب، احترق ثقافة ومعرفة وتغلب! احترق إرادة وتحملا وعش!.. **لأن هذه هى الحياة!!**

«لن تمتهن إلا إذا تلهفت، ولن تحتقر إلا إذا توسلت ولن تموت إلا إذا انبطحت وزحفت، فأدر وجهك ولا تتطلع والبث فى مكانك ولو احترقت.. احترق تجلداً وتصلب وتعذب! احترق وحدة وعظمة وتغلب! احترق ثباتاً وتحفزاً وعش!.. **لأن هذه هى الحياة!!**

«وإذا انحنت إليك السماء من عليائها ورمقتك بعيون كلها العطف والحب فابتسم الحظ لشجاعتك، وخضع المجد لارادتك، ودانت الدنيا لسلطانك، فافتح مغاليق صدرك وتقدم.. تقدم أيضاً واحترق دون تشامخ أو استعلاء واذكر دائماً أنك إنسان.. احترق فى هذه المرة تطلعاً إلى السماء! احترق تحديقاً فيما هو فوق الشمس!! احترق سعياً وراء الكمال المطلق اللانهائى وعش!.. لأن هذه هى الحياة!! (أندريه ريفوار).

- **أبناء روح واحد :**
- أنك أخى لأنك إنسان مثلى، وقد أحببتك وأنت قاسمى فى الحياة وشريكى، بل ورفيقى فيها، لأننا كلينا إبن روح واحد كما أننا نتماثل فى الوجود معاً فى سجن هذا الجسد!!
- أنت أخى وأنا أحبك فلماذا نتباعد ونسلك طريق اللوم والسخرية أحدنا بالآخر، إن اللوم حقير والاستهزاء باطل، وما أبعد من يحصر نفسه فيهما عن الحياة!!
- فلا تلمنى وأنت أخى، لا تتعب نفسك بل دعنى وشأنى، فليس بمقدورك أن تحكم على مسبقاً، بل اصبر إلى الغد، فإن الغد كفيل بأن يحكم على كل منا بما يشاء، وحكمه حينئذ نهائى!!
- اعتزل يا أخى ذكر المحرمات أمامى، لأن لى من ضميرى محكمة عدل

وانصاف تقينى العقاب إن كنت باراً وتحرمنى الثواب إن كنت مجرماً ...

- فلا تلمنى وأنت أخى لأن الأرض كلها وطنى، والبشر جميعهم أخوتى ...
- فلتفعل بى ما تشاء فإنك لست قادراً على مس حقيقتى، ومهما فعلت بجسدى ومعاشى فإنك لن تؤلم نفسى، ولن تميت روحى ...

- **جمال الموت :**

دعونى أنم، فقد سكرت نفسى بالمحبة!!
دعونى أرقد فقد شبعت نفسى من الأيام والليالى!!
اتركونى غارقاً بين ذراعى الكرى، فقد تعبت أجفانى من هذه اليقظة!!
ترنموا بالأغانى وأبسطوا معانيها السحرية فراشاً لعواطفى، ثم تأملوا وانظروا شعاعة الأمل فى عينى!!!
تعالوا وانظروا ظل الله فى عينى، واسمعوا صدى نغمة الأبدية متسارعة مع أنفاسى!!

- **راحة الموت :**

لا تندبونى يا بنى أمى، بل انشدوا نشيد الغبطة والسرور، لا تذرفوا الدموع على، بل تهللوا معى بأنشودة الخلود!!
لا تغمروا صدرى بالتأوه والأنين، بل ارسموا عليه رمز المحبة ورسم الفرح!!
لا تلبسوا السواد حزناً على، بل ارتدوا البياض فرحاً معى، ولا تتكلموا عن ذهابى بالأنين والزفرات بل اغمضوا عيونكم تجدوننى بينكم الآن!!

> **"وسيمسح الله كل دمعة من عيونهم والموت لا يكون فيما بعد ولا يكون حزنا ولا صراخ ولا وجع فيما بعد لأن الأمور الأولى قد مضت وقال الجالس على العرش ها أنا أصنع كل شئ جديداً" «رؤيا ٢١: ٤، ٥».**

الفهرست

صفحة

مقدمة ٣
مدخل ٤
الفصل الأول : الحياة والموت أمام العلم ٦
الفصل الثانى : الحياة والموت أمام الفلسفة ١٩
الفصل الثالث : الحياة والموت أمام الدين ٣٣
خاتمة : أقوال أدبية عن الحياة والموت ٥٩

تم إعداد هذا الكتاب - وتقديمه للطباعة - بعونه تعالى فى السادس عشر من شهر مايو عام ١٩٩٤

رقم الايداع ١٩٩٤/٧٢٠٣

اوتو برنت
ت ٥٧٢٩٥٦٣

هذا الكتاب

هذا الكتاب هو البحث النادر الذى قام المؤلف باعداده منذ عدة سنوات إلى أن شاءت العناية الإلهية أن تختاره ليكون الكتاب الرابع والثمانين من السلسلة التى أصدرها خلال خمسين عاما منذ عام ١٩٤٤ إلى عام ١٩٩٤ وهو يقدم فيه أدق التعاريف لماهية "الحياة والموت" فى دوائر العلم والفلسفة والدين، وذلك لإعطاء حقيقتهما مكانها ومكانتها وهذا ما يسعى إليه العقل - أثناء بحثه لمشكلات أصل الإنسان ومصيره، فى محاولة جادة لتفهم ماهية الحياة وكنهها، وسر الموت ورهبته - باعتبار أن ذلك هو محور "الحقيقة الوجودية"، وهى عامة يلتقى في رحابها طالبو المعرفة!!

ولذلك فإنه يستعرض هنا أبحاث العلم وآراء الفلسفة وعقائد الدين - وذلك بقدر المستطاع - نظرا لعمق الموضوع وسعته، وما يدور حوله من أسئلة قد حارت فيها العقول، ولكننا سنرى كيف سيتجلى للباحث النزيه أن العلم والفلسفة والدين كلها نواح واتجاهات تهدف إلى حقيقة وجودية واحدة متدرجة في سلم العرفان - العلم أول درجاته، والفلسفة أوسطها، والمعتقد أعلاها .. والعلم، لذلك يقوم بأبحاثه فى الطبيعة، وهذه هى الاستطلاعات الأولى التى بدأ بها محاولاته فى الأقتراب من أسرار هذا الوجود الذى نحن جزء من صميمه، أما الفلسفة فإنها مجال العقل فى تفكيره الحر، وهى على هذا الاعتبار رائد الفكر ومجلى الحكمة وسجل المعرفة وحسب الفلسفة شرفا وقيمة أن تكون هى نقطة الصلة بين العلم والدين!! وأما الدين فهو منبع السعادة وكشافها الأوحد الذى لا يخطىء الهدف وهو لذلك منار الإنسانية الأعظم، ومصباحها المنير، فى طريق التقدم الحضارى والأدبى أيضا، ناهيك عن تحديده لمعالم النهاية والمصير!!

الثمن ١٥٠ قرشاً